مذكرة
في
علوم القرآن العظيم

جمع و تأليف و تكميل
أحمد سلام

دار ابن حزم

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

ISBN 9953-81-336-1

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

مذكرة
في
علوم القرآن العظيم

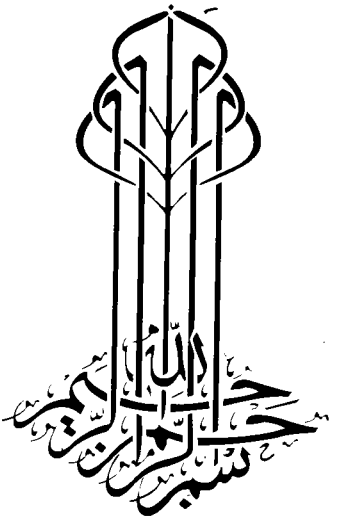
سبحان الله العظيم

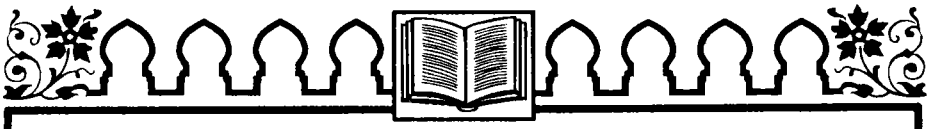

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

أما بعد: فإن أصدق الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد: فقد كانت هذه المذكرة أولاً؛ بضعة أبحاث وجيزة، غير منسقة ولا متكاملة، وتفتقر إلى ضم أخواتها ونظائرها، وكنت ألقيتها على بعض الشباب من طلبة العلم في عدد من الجلسات.

ولما شعرت بعد حين بالحاجة إلى استكمال مادة الدرس، أردت

اختيار كتاب من كتب الفن لتدريسه، فوجدتني بين أخذ أحد المطولات، كالإتقان للإمام السيوطي، وهو على غناه وغزارة مادته، مفتقر لتحرير هذه المادة، واستخلاص المباحث الأساس في علوم القرآن، والاكتفاء بالأقوال الجديرة بالاعتبار، وبين الرجوع إلى المؤلفات العصرية، وهي برغم ما فيها من جهود محترمة؛ لم تخل من تطويل إنشائي، أو افتقار إلى الكثير من منهجية أهل السنة في البحث، أو افتقاد العديد من المباحث الضرورية في علوم القرآن.

فعزمت على الشروع في إعداد هذه المذكرة، واستيفاء مباحث هذا الفن الضرورية:

مما لا غنىٰ عنه لطالب الإلمام بعلوم القرآن، وفهم مصطلحاتها، والتعرف إلى مقاصدها.

وحرصت على لزوم منهج أهل السنة في أبحاثه، من التوثيق، وعرض أصول التفسير، ومناهجه، وكان جل جهدي في هذا العمل في جمع المادة، واختيارها من مصادرها ومظانها القديمة والمعاصرة وتنسيقها، إضافة إلى طائفة من التعليقات، والترجيحات، والتصويبات، والإضافات.

وأسأل الله تعالى أن ينفعني وإخواني بها، ويغفر لي الخطأ والسهو والنقص، وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

أحمد سلام

يوم الأربعاء السابع من رجب

لعام ١٤٢٤هـ موافق ٢٠٠٣/٩/٣م

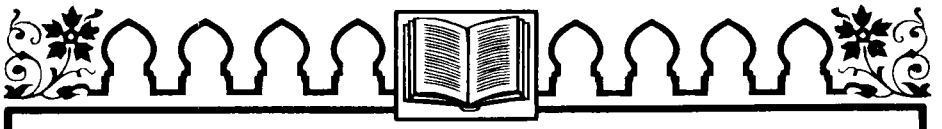

تعريفات

أولاً ـ علوم القرآن:

١ ـ العلوم جمع علم، وهو مصدر يراد به معرفة الأمر على وجه يطابق حقيقته، والعلم يشمل ما يفيد القطع، وما أفاد الظن الراجح، وهو عكس الجهل والشك، والظن الضعيف المرجوح.

وهو اسم لمجموع أصول كلية، ومسائل تفيد معرفة فن أو باب بخصوصه.

٢ ـ القرآن لغة: مصدر، كالقراءة، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ۝١٨﴾ [القيامة: ١٧ ـ ١٨]، كما يراد به المقروء. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨].

اصطلاحاً: وهو اسم لكلام الله تعالى، المجموع بين الدفتين في المصحف، أوله سورة الفاتحة، وآخره سورة الناس، المنزل من الله تعالى، على محمد ﷺ، بواسطة جبريل عليه السلام، المتعبد بتلاوته، المعجز بألفاظه، ومعانيه، ونظمه.

وهو المتلو بالأفواه، المسموع بالآذان، المحفوظ في الصدور، المسطور في الصحف. وهو يشمل اللفظ والمعنى، ويطلق على جميع ما في المصحف من كلام الله تعالى، وعلى بعضه، كالسورة والآية.

٣ ـ وعلوم القرآن: الأبواب الجامعة للعلم بنزول القرآن، وكيفيته، وأسبابه، وجمع القرآن، وأنواعه، وتدوينه، وحروفه، وقراءته، وتفسيره.

ثانياً ـ السورة:

لغةً: هي الارتفاع والرفعة، قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص: ٢١]، ويراد بها اصطلاحاً: مجموع الآيات ما بين البسملتين.

ثالثاً ـ الآية:

لغةً: لها معان عدة، ومنها العلامة الدالة، واصطلاحاً: ما بين الفاصلتين من السورة الواحدة.

رابعاً ـ الوحي:

لغةً: الإعلام السريع الخفي، وهو يقع على الكتابة، والإشارة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي[1].

ويراد بالوحي اصطلاحاً: تبليغ الدين لأنبياء الله تعالى، ويشمل الإلهام والتنزيل، وطرق الوحي جميعها. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١] ويراد به الموحى به إلى النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأحقاف: ٩].

خامساً ـ ثمرات علوم القرآن:

١ ـ إدراك شرف تعلم القرآن أو تعليمه:

القرآن أشرف كلام سمعه الإنسان، وأشرف منهاج يهدي الإنسان إلى

---

(١) انظر النهاية لابن الأثير: (١٦٣/٥).

مقاصده، ويرعى فطرته وعقله وإرادته، وينظم سلوكه، وحركة مجتمعه، فهو الباب إلى الخير، ولهذا يقول النبي ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[1].

ولا شك أن تعلّم علوم القرآن وتعليمها من أفضل ما يدخل في هذا الوعد النبوي الكريم، لأن علوم القرآن اختصت بمعارف ليست في غيرها، ولأنها دليل إلى الاتصال بكلام الله سبحانه، والانتفاع به.

٢ ـ معرفة جدل القرآن وحججه:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣].

فكلام الله تعالى مشتمل على جميع الأدلة العقلية والنقلية في مطالب الدين، وأصول الاعتقاد، والرد على أصناف المكذبين، والمنافقين، والمشركين، والملحدين، وفي رد الشبهات، وعلاج أمراض القلوب، وعلوم القرآن من أهم ما يوصل إلى التعرف إلى هذه الحجج والبينات الهادية.

٣ ـ توثيق القرآن الكريم:

وعلوم القرآن تتضمن تاريخ كتابة المصحف، وتوثيق نقله، وطرقه، وضبط سوره، وآياته، وطرق الوحي، وهو مما يعزز الثقة بضبطه، وسلامته، ويعزز القدرة على رد المطاعن والشكوك في سلامة القرآن.

٤ ـ تصحيح فهم القرآن:

إن معرفة اختلاف القراءات، وطرق توجيهها، ووجوه الأشباه

---

(١) رواه البخاري وغيره.

والنظائر، وتمييز الناسخ والمنسوخ؛ يرفع الغلط والاشتباه عن فهم الكثير من الآيات، ومن ثم عن الأحكام والمسائل المتعلقة بفهمها، وهذا وأمثاله يرجع إلى علوم القرآن، كما يعزز فهم القرآن عموماً، ويوثق الصلة به وبعلومه.

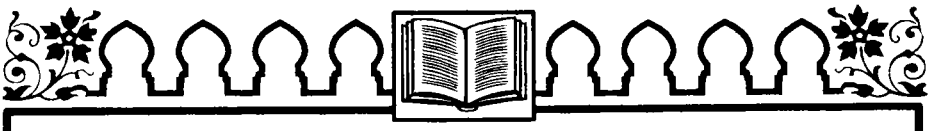

المبحث الأول
كيفيات الوحي

كان الوحي يأتي رسول الله ﷺ بكيفيات مختلفة، هي:

أولاً - رؤيا المنام:

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح)[1].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصافات: ١٠٢ - ١٠٥]، وهذا من الأدلة على الوحي في الرؤيا عموماً.

ومما نزل على رسول الله ﷺ من القرآن مناماً سورة الكوثر، قال

---

(١) البخاري كتاب بدء الوحي، انظر الفتح (١/٣٠) وقال الحافظ: (... وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع من شهر مولده ﷺ وهو ربيع الأول بعد إكمال أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان..) فتح الباري (١/٣٦٠٣٧).

الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: (. . .فمن أمثلته سورة الكوثر، لما روى مسلم عن أنس قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: «**أُنزل عليَّ آنفاً سورة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾»[1]).

وقد تأول الإمام السيوطي الإغفاءة المذكورة في الحديث أنها بُرحاء الوحي، وهي ما كان يعتريه عند الوحي من شدة الكرب، والصحابي أعلم وأدرى بتفسير ما رآه وهو قد قال: أن رسول الله ﷺ قد أغفى، فإن قيل ليست هذه من النوم، أو هي بُرحاء الوحي، كان هذا التأويل ذريعة لعدِّ نزول القرآن كله رؤيا منام، فتدبر!.

ومن هذا ظهر أن أول بداية النبوّة والوحي إلى رسول الله ﷺ، كانت الرؤيا الصادقة في المنام، وأن الأنبياء يتلقون الأوامر من الله تعالى مناماً، كما يتلقونها يقظة، وأن من القرآن ما نزل على رسول الله ﷺ في المنام.

ثانياً ـ أن يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس:

روى الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّه عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال. . .**»، قالت عائشة رضي الله عنها: (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً)[2].

والصلصلة كما ذكر الشراح، هي في الأصل صوت وقوع الحديد بعضه على بعض، ثم أطلق على كل صوت له طنين، فلا ينفصل عنه

---

(١) الإتقان للإمام جلال الدين السيوطي، رحمه الله، (٧٣/١).

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي: انظر الفتح: (٢٦/١).

الملك إلا وقد تصبب عرقاً، وذلك لشدة هذه الطريقة عليه ﷺ، وهي أشد الحالات على رسول الله ﷺ.

ثالثاً ـ أن يتمثل له المَلَكُ رجلاً:

فيأتيه الملك متمثلاً هيئة رجل، فيكلمه بالوحي، وفي حديث الحارث بن هشام، يقول رسول الله ﷺ: «. . . **وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني، فأعي ما يقول**. . .»[1].

رابعاً ـ أن يكلّمه الله يقظة:

وهذا وقع للنبي ﷺ في حادثة المعراج، عندما فرض الله على أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة، فراجعه ﷺ، حتى ثبتت خمساً في العمل، وخمسين في الأجر[2].

خامساً ـ أن يكلمه الله مناماً:

كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**أتاني الليلة ربي تبارك في أحسن صورة، فقال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا. . . .**»[3].

سادساً ـ أن ينفث جبريل في روعه:

في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**إن روح القدس نفث في روعي: أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته**»[4].

---

(١) الحاشية السابقة تكملة للحديث.

(٢) رواه البخاري: في كتاب الصلاة، انظر الفتح (٥٤٧/١).

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٥٩): صحيح.

(٤) صحيح الجامع الصغير لشيخنا الألباني رحمه الله: (٢٠٨٥): صحيح.

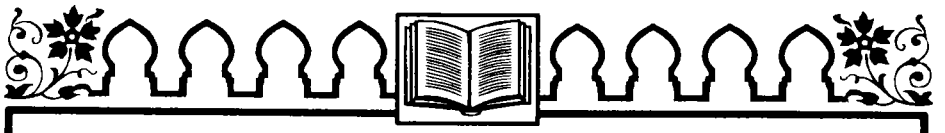

المبحث الثاني
جمع القرآن، وتدوينه

ويراد بالجمع: الحفظ في الصدور، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾ [القيامة: ١٧].

ويراد به كتابة القرآن في المصحف، كما يتبين من قول زيد بن ثابت رضي الله عنه: «فتتبعت القرآن، أجمعه من العُسُب، واللِّخاف، وصدور الرجال»(١).

ويراد به جمعه كتابة في الأكتاف، والأحجار، وعسب النخيل، كما جمع في المرة الأولى في عهد رسول الله ﷺ.

وقد جمع القرآن مرات ثلاث:

- مرة على عهد رسول الله ﷺ.
- ومرة على عهد أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه.
- ومرة على عهد عثمان ذي النورين رضي الله عنه.

أولاً ـ جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ:

روى الإمام أحمد، والترمذي، والحاكم وغيرهم عن زيد بن ثابت

---

(١) البخاري: كتاب فضائل القرآن، انظر فتح الباري (٨/٦٢٧).

رضي الله عنه، قال: (كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع)[1].

قال الإمام السيوطي رحمه الله: (قال البيهقي: يشبه أن يكون أن المراد به تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة في سورها، وجمعها فيها بإشارة من النبي ﷺ)[2].

قلت: والظاهر أن الآيات كانت تكتب عند نزولها في رقاع، ثم توضع بعد ذلك في مكانها من السورة، بأمر رسول الله ﷺ.

وفي هذا دلالة على كتابة القرآن في عهد رسول الله ﷺ، يؤيده حديث زيد بن ثابت: (فتتبعت القرآن، أجمعه في العسب، واللِّخاف وصدور الرجال)[3].

وفيه دلالة كذلك على أن تأليف الآيات ضمن السورة الواحدة توقيفي بأمر رسول الله ﷺ، كما قال الإمام البيهقي وغيره.

ويدل على كتابة القرآن على عهد رسول الله ﷺ غير ما تقدم قول رسول الله ﷺ: «**لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه**»[4].

فالجمع الأول كان على عهد رسول الله ﷺ، كتب فيه القرآن مفرقاً في قطع الجلد، والعظام، والحجارة، وعسب النخل، وتم تأليف آيات السور في مواطنها، مع حفظه في الصدور، وفيه الحروف السبع بأكملها.

---

(١) المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير باب جمع القرآن لم يكن مرة واحدة (٢٢٩/٢) كتاب التاريخ: باب تأليف القرآن في عهد رسول الله ﷺ (٦١١/٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الإمام الذهبي، والحديث في صحيح الترمذي لشيخنا حفظه الله، ورقمه: ٣٠٩٩.

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١٨٢/١) ط. دار ابن كثير.

(٣) وهذا يدل على أن القرآن كلّه كتب في عصر النبوة، وبإشراف النبي ﷺ، لأن كتّاب الوحي كانوا يكتبونه بحضرته وإملائه.

(٤) صحيح مسلم كتاب الزهد، باب التثبت في الحديث، انظر مسلم بشرح النووي. ج (١٢٩/١٨).

ثانياً ـ جمعه في خلافة أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه:

وقد كان من سببه أن القتل كثر في حملة القرآن في معركة اليمامة، التي كانت بين جيوش الخلافة الراشدة الظافرة، وجيوش أهل الردة، فجاء عمر رضي الله عنه، إلى أبي بكر رضي الله عنه، وأشار عليه بجمع القرآن في المصحف، خشية أن يضيع بذهاب حملته.

روى البخاري عن زيد بن ثابت، قال: (أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحر[1] بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن[2]، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، فقلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هو والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك شاب، عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه.

فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟

قال: وهو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح صدر أبي بكر وعمر، فتتبعت القرآن، أجمعه من العسب، واللخاف، وصدور الرجال، ووجدت، آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر)[3].

---

(١) اشتد وكثر.

(٢) المعارك.

* قال الحافظ: (أي مكتوبة، لما تقدم من أنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة).

(٣) البخاري: كتاب فضائل القرآن: باب جمع القرآن، انظر فتح الباري (٦٢٧/٨).

وروى ابن أبي داود في كتاب «المصاحف» عن عبد خير، قال:

(سمعت علياً يقول: أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله)[1].

والمراد أول من جمعه في المصحف، لا مطلق الجمع، فقد ثبت أنه جمع أولاً على عهد رسول الله ﷺ، فأول من جمعه في المصحف أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه.

قال الإمام السيوطي: (قال الخطابي: إنما لم يجمع ﷺ القرآن في المصحف، لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه، أو تلاوته، فلما انقضى نزوله بوفاته، ألهم الله الخلفاء الراشدين لذلك، وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة...)[2].

قال الحافظ: (وعند ابن أبي داود أيضاً في كتاب «المصاحف» من طريق يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب، قال: قام عمر، فقال: (من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، قال: وكان لا يقبل من أحد شيئاً، حتى يشهد شاهدان»، وهذا يدل على أن زيداً لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً، حتى يشهد به من تلقاه سماعاً، مع كون زيد كان يحفظه، وكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط)[3].

فالجمع الثاني هو جمع سور القرآن مرتبة في المصحف، بعد أن كانت مكتوبة متفرقة في قطع الجلد، والعظام، وعسب النخيل.

واعتمد الصحابة في هذا الجمع على اختيار رجل عاقل شاب أمين، كتب الوحي لرسول الله ﷺ، فاكتسب الخبرة لهذا العمل.

وقد بالغ في الاحتياط في الجمع، فكان لا يقبل من القرآن إلا ما ثبت بشهادة شاهدين سمعاه من رسول الله ﷺ، إضافة إلى وجدانه مكتوباً.

---

(١) حسّنه الحافظ ابن حجر في الفتح، انظره (٨/٦٢٩).

(٢) الإتقان (١/١٨١).

(٣) انظره في الفتح: (٨/٦٣١).

وهو متضمن للأحرف السبعة، كالجمع الأول.

وكانت لدى الصحابة مصاحف أُخر غير المصحف الذي كان عند حفصة رضي الله عنها مثل مصحف علي، ومصحف ابن مسعود، ومصحف أبي بن كعب، جمعت بعد مصحف أبي بكر، كان الناس يقرؤون بها وقتهم ذاك.

ثالثاً ـ جمعه في خلافة عثمان ذي النورين رضي الله عنه:

وكان من سببه أن أهل العراق، وأهل الشام، وأهل المدائن، التقوا في غزاة أرمينية، وكان معهم حذيفة رضي الله عنه، فاختلفوا في القراءة، فأفزع ذلك حذيفة رضي الله عنه، فطلب إلى عثمان أن يجمع الناس على مصحف واحد.

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة: (يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى) فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان.

فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: (إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم) ففعلوا.

حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق)[1].

---

(١) البخاري كتاب فضائل القرآن: باب جمع القرآن، الفتح (٦٢٧/٨).

قال الحافظ ابن حجر: (وفي رواية عمارة بن غزية أن حذيفة قدم من غزوة، فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان، فقال: (يا أمير المؤمنين، أدرك الناس، قال: وما ذاك؟ قال: غزوت فرج أرمينية، فإذا أهل الشام يقرؤون بقراءة أبي بن كعب، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، وإذا أهل العراق يقرؤون بقراءة عبدالله بن مسعود فيأتون بما لم يسمع أهل الشام، فيكفر بعضهم بعضاً)[1].

وقال: (وأخرج ابن أبي داود أيضاً من طريق يزيد بن معاوية النخعي قال: إني لفي المسجد زمن الوليد بن عقبة في حلقة فيها حذيفة، فسمع رجلاً يقول: قراءة عبدالله بن مسعود، وسمع آخر يقول: قراءة أبي موسى الأشعري، فغضب، ثم قام فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: هكذا كان من قبلكم اختلفوا، والله لأركبن إلى أمير المؤمنين)[2].

وقد سرد الحافظ رحمه الله أسماء تسعة من الاثني عشر نفراً الذين أمروا بالكتابة أو الإملاء عند نسخ المصاحف، وهم: زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، ومالك بن أبي عامر جد مالك بن أنس، وكثير بن أفلح، وأبي بن كعب، وأنس بن مالك، وعبدالله بن عباس[3].

وقد أذن الله أول الأمر في القراءة على حروف سبعة، تيسيراً على الناس، وكان ذلك في المدينة، كما قال الحافظ رحمه الله، واستدل على ذلك بحديث أبي بن كعب، وفيه أن رسول الله ﷺ: (كان عند أضاة[4] بني غفار، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف، فقال: أسأل الله معافاته، ومغفرته، وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم أتاه الثانية، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك على حرفين...)[5].

---

(١) الفتح: (٨/٦٣٤).

(٢) الفتح: (٨/٦٣٤).

(٣) الفتح: (٨/٦٣٦).

(٤) الأضاة: مستنقع الماء.

(٥) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين: باب أن القرآن على سبعة أحرف، انظر شرح مسلم للنووي (٦/١٠٣). فالقراءة على سبعة أحرف كانت أول الأمر رخصة وتوسعة، ثم ترك الصحابة الرخصة بأمر عثمان الخليفة الراشد، درءاً للفرقة والنزاع.

ولما توفي رسول الله ﷺ، ووقع الاختلاف بين المسلمين في القراءات جمع عثمان المسلمين على مصحف واحد، دفعاً للاختلاف.

وفي الجمع الأخير جمع عثمان المسلمين على مصحف واحد، بلغة قريش، وحرق جميع المصاحف، برضى من الصحابة، وفي الجمع الأخير بعض الحروف السبعة، وهو ما وافق المصحف الإمام، رسماً، أو احتمالاً.

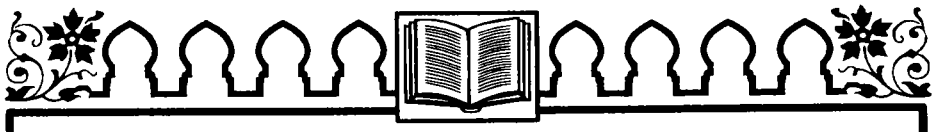

المبحث الثالث
أسباب النزول

قال السيوطي: (قال الجعبري: نزول القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداء، وقسم نزل عقب واقعة، أو سؤال)[1].

والثاني هو موضوع هذا البحث.

أولاً ـ سبب النزول:

قد ينسب إلى أسباب النزول ما ليس منها، ومن ذلك:

١ ـ ما ذكره الواحدي في سورة الفيل، أن سبب نزولها قصة قدوم الحبشة به.

قال السيوطي: (فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة قوم نوح، وعاد وثمود، وبناء البيت)[2].

٢ ـ ما يراد به تفسير الآية:

قال الشيخ الإسلام ابن تيمية: (وقولهم: نزلت هذه الآية في كذا، يراد به تارة أنه سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية، وإن

---

(١) الإتقان: (٩٢/١).

(٢) الإتقان: (١٠١/١).

لم يكن السبب، كما نقول: عنى بهذه الآية كذا)[1].

وهذا النوع يراد به التفسير، ولا يدل على سبب النزول، وتأتي أمثلة منه، وقد نبّه السيوطي إلى نوع آخر ينسب إلى أسباب النزول، وليس منها، وهو أن يكون في القصة كلمة (فتلا) فَيَهِمُ الراوي، فيقول: (فنزل) ومثَّل له بما أخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس، قال: «مرَّ يهودي بالنبي ﷺ، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السماوات على ذه، والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه. فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ . . .﴾»[2].

والحديث في الصحيح بلفظ: (فتلا رسول الله. . .)[3] وهو الصواب.

وسبب النزول ذكر السيوطي في تعريفه: (والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه)[4].

وكماله يكون بتقييده بأن تكون الآية، متعلقة بالواقعة ببيان، أو إجابة عن سؤال، وما وقعت وقت نزول الآية مما لا تتعلق به لا يُعدُّ في أسباب النزول.

ثانياً ـ طرق معرفة أسباب النزول:

١ ـ قال الواحدي: (لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع، ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على أسبابه، وبحثوا عن علمها)[5].

فأسباب النزول تعرف بالآثار الواردة عن الصحابة، والتي تعتبر بقواعد

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٨٢/١٣).

(٢) الحديث في ضعيف الترمذي: (٦٣٨): ضعيف.

(٣) البخاري في كتاب التفسير: باب ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾: الفتح: (٤١٢/٨)، والحديث بلفظ: (. . . ثم قرأ رسول الله. . .).

(٤) الإتقان: (٩٢/١).

(٥) الإتقان: (٩٩/١).

النقل الذي يعتبر به الحديث سواء، لأن أسباب النزول ذات أثر كبير في تأويل الآية، فالخطأ فيه يترتب عليه حق أو باطل، أو تحليل حرام، كما يترتب على الحديث.

ولا يحل القول في أسباب النزول بالظن، والتخمين، والاجتهاد.

٢ ـ قال الحاكم النيسابوري: (إذا أخبر الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث مسند، ومشى على هذا ابن الصلاح وغيره.

ومثلوه بما أخرجه مسلم عن جابر، قال: (كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ . . .﴾[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد تنازع العلماء في قول الصاحب: نزلت هذه الآية في كذا، هل يجري مجرى المسند، كما يذكر السبب الذي أنزلت لأجله، أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند؟

فالبخاري يدخله في المسند، وغيره لا يدخله في المسند، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح، كمسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند)[٢].

والذي يتحرر في هذه المسألة:

أ ـ أن قول الصحابي في الآية نزلت في كذا، إذا ذكر سبباً فهو في حكم المسند، ويثبت به سبب النزول.

ب ـ إذا قال الصحابي نزلت هذه الآية في كذا، ولم يذكر سبباً، وعارض قول صحابي آخر في السبب، والصحابي الآخر ذكر السبب، فيحمل قول الأول على التفسير.

---

(١) الإتقان: (١/١٠٠).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٣/١٨٢).

ت ـ وإذا لم يذكر سبب نزول، ولم يعارض قول غيره، وأمكن حمله على السبب، ثبت به سبب النزول، وليس كالمسند في ذلك.

ثالثاً ـ ثمرة معرفة أسباب النزول، من ذلك:

من ذلك:

١ ـ معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم:

فمعرفة السبب الباعث من طرق معرفة مقاصد التشريع، والعلم بالمقاصد من الأسباب المعينة على فهم النصوص، والاجتهاد على وفق مقاصدها.

٢ ـ إخراج صورة النزول من التخصيص، وقصره على ما عداها، لأن دخول سبب النزول في دلالة الآية قطعي، وإخراجه بالاجتهاد ممنوع، وقد حكي فيه الإجماع.

٣ ـ إزالة الإشكال، والوقوف على المعنى، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن دقيق العيد، والواحدي.

روى البخاري عن ابن أبي مليكة علقمة بن وقاص أخبره أن مروان قال لبوابه: (اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يعمل معذباً لنعذبن أجمعين، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه؟ إنما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء، فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أتوا من كتمانهم، ثم قرأ ابن عباس ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ . . .﴾ حتى قوله: ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾[1].

٤ ـ تعيين المبهم في الآية:

ومثاله ما روى البخاري أن معاوية رضي الله عنه استعمل مروان على الحجاز، فجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه، فقال له

---

(١) البخاري: كتاب التفسير: باب: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾: الفتح (٨/٨١).

عبدالرحمن بن أبي بكر شيئاً، فقال: خذوه، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذي أنزل الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ . . .﴾. فقالت عائشة من وراء الحجاب: (ما أنزل الله فينا شيئاً في القرآن، إلا أن الله أنزل عذري[1])[2].

رابعاً ـ طرق التوفيق بين الأسباب المختلفة:

١ ـ إذا اختلفت الأقوال في السبب، كأن يقول الصحابي نزلت هذه الآية في كذا، وغيره يعزو النزول إلى سبب آخر، فهذا يراد به التفسير، لا ذكر سبب النزول، فإذا تناول اللفظ كلا المعنيين، فيحمل عليهما معاً، ولا منافاة.

٢ ـ إذا قال واحد: نزلت في كذا، وصرح الآخر بذكر سبب خلافه، فالمعتمد هو السبب المذكور، ومثاله ما أخرجه البخاري عن ابن عمر، قال: (أنزلت: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ . . .﴾ في إتيان النساء في أدبارهن)[3].

عارضه حديث جابر عند البخاري، قال: (كانت اليهود تقول: من أتي امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل الله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ . . .﴾)[4].

فالصواب قول جابر، لأنه نقل، كما قال السيوطي، وقول ابن عمر فهم منه، قال الإمام السيوطي: وقد وهَّمه ابن عباس، وذكر مثل حديث جابر، كما أخرجه أبو داود والحاكم.

وحديث ابن عباس رضي الله عنه ساقه شيخنا الألباني حفظه الله، في صحيح أبي داود، ولفظه: (عن ابن عباس، قال: إن ابن عمر ـ والله يغفر

---

(١) البخاري في تفسير: باب ﴿وَٱلَّذِى قَالَ . . .﴾ الفتح: (٨/٤٣٩).
(٢) الإتقان: (١/٩٢ ـ ٩٣).
(٣) البخاري في التفسير: باب ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾، انظر الفتح: (٨/٣٧).
(٤) انظر التخريج الذي قبله.

له ـ أوهم، إنما كان هذا الحي من الأنصار ـ وهم أهل وثن ـ مع هذا الحي من يهود، وهم أهل كتاب، وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً منكراً، ويتلذّذون منهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرته عليه، وقالت: إنما كنا نؤتى على حرف، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني، حتى شريَ أمرهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ...﴾، أي: مقبلات ومدبرات ومستلقيات، يعني بذلك موضع الولد)[1].

٣ ـ وإن ذكر صحابي سبباً، وذكر الصحابي الآخر سبباً غيره، وإن كان إسناد أحدهما صحيحاً، دون الآخر، فالصحيح هو المعتمد.

مثاله: روى البخاري عن جندب بن سفيان رضي الله عنه، قال: (اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾)[2].

قال الحافظ في شرح الحديث: (ووجدت الآن في الطبراني بإسناد فيه من لا يعرف، أن سبب نزولها وجود جرو كلب تحت سريره ﷺ لم يشعر به، فأبطأ عنه جبريل لذلك، وقصة إبطاء جبريل عنه بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب، بل شاذ مردود بما في الصحيح)[3].

---

(١) صحيح سنن أبي داود: (١٨٧٦): حسن.

(٢) البخاري في التفسير: باب: ما ودعك ربك: الفتح (٨/٥٨٠).

(٣) البخاري في التفسير: باب ما ودعك ربك: الفتح (٨/٥٨٠).

٤ ـ إذا استوى الإسنادان في الصحة، فيرجح أحدهما بكون راويه حاضر القصة، أو بغير ذلك من المرجحات.

مثاله: روى البخاري عن عبدالله بن مسعود، قال: (بينا أنا أمشي مع النبي الله ﷺ في خِرَبِ المدينة، وهو يتوكأ على عسيب معه، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم لا تسألوه، لا يجيء بشيء تكرهونه، فقال بعضهم لنسألنَّه، فقام رجل منهم، فقال: يا أبا القاسم، ما الروح؟ فسكت، فقلت: إنه يوحى إليه، فقمت، فلما انجلى عنه فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾)[1].

وروى الترمذي عن ابن عباس، قال: (قالت قرش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه عن الروح، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾، قالوا: أوتينا علماً كبيراً، أوتينا التوراة، ومن يؤت التوراة فقد أوتي خيراً كبيراً، فأنزلت: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ...﴾[2].

وابن مسعود كان صحبة النبي ﷺ عند وقوع الحادثة، فقوله معتمد، بخلاف قول ابن عباس رضي الله عنه.

٥ ـ أن يذكر كل منهما سبباً، وتصح أسانيد الروايتين، ويمكن نزول الآية عقب الحادثتين، فيحمل على النزول بسببين، ويكون كل حادث سبباً للنزول.

مثاله: روى البخاري عن ابن عباس: (أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبي ﷺ: «**البينة أو حدٌّ في**

---

(١) البخاري كتاب العلم: باب قول الله تعالى ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الفتح (١/٢٧٠).

(٢) صحيح الترمذي: (٢٥١٠): صحيح الإسناد.

ظهرك»، فقال: يا رسول الله، إذا رآى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: **«البينة، وإلا فحدٌّ في ظهرك»**، فقال هلال بن أمية: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل، وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ . .﴾. . .)[1].

وروي عن سهل بن سعد: أن عويمر العجلاني. . فقال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأله عنها، فأقبل عويمر حتى جاء رسول الله ﷺ وسط الناس، فقال: يا رسول الله، أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً، أيقتله فتقتلونه؟ أم كيف؟ فقال رسول الله ﷺ: **«قد أنزل الله فيك وفي صاحبتك، فاذهب فأتِ بها. . .»**[2].

قال الحافظ: وقد اختلف الأئمة في هذا الموضع، فمنهم من رجح أنها نزلت في شأن عويمر، ومنهم من رجح أنها نزلت في شأن هلال، ومنهم من جمع بينهما بأن أول من وقع له ذلك هلال، وصادف مجيء عويمر أيضاً، فنزلت في شأنهما معاً في وقت واحد، وقد جنح النووي إلى هذا، وسبقه الخطيب، فقال: (لعله اتفق كونهما جاءا في وقت واحد)[3].

٦ ـ ألا يمكن الجمع بتقارب وقوع الحادثتين، فيحمل على تعدد النزول، ومثاله:

روى الإمام البخاري عن ابن المسيَّب عن أبيه: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: **«أي يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»**، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر

---

(١) البخاري في التفسير، باب ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، الفتح (٨/٣٠٣).

(٢) البخاري في الطلاق: باب اللعان: الفتح (٩/٣٥٥).

(٣) فتح الباري (٨/٣٠٤).

شيء كلمهم به: على ملّة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «**لأستغفرنَّ ما لم أنه عنه**» فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾[1].

وروى الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ينظر في المقابر وخرجنا معه، فأمرنا فجلسنا، ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها فناجاه طويلاً، ثم ارتفع نحيب رسول الله ﷺ باكياً، فبكينا لبكائه، ثم أقبل علينا، فتلقاه عمر بن الخطاب، فقال: يا رسول الله، ما الذي أبكاك؟ فقد أبكانا وأفزعنا، فجاء فجلس إلينا، فقال: «**أفزعكم بكائي؟**» فقلنا: نعم يا رسول الله، فقال: «**إن القبر الذي رأيتموني أناجي فيه قبر أمي آمنة بنت وهب، وإني استأذنت ربي في زيارتها، فأذن لي، فاستأذنته في الاستغفار لها، فلم يأذن لي، ونزل عليَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ . . .﴾**»[2].

خامساً ـ من المصنفات في أسباب النزول:

قال السيوطي: «. . .أفرده بالتصنيف جماعة، أقدمهم علي بن المديني شيخ البخاري، ومن أشهرها كتاب الواحدي على ما فيه من إعواز، وقد اختصره الجعبري، فحذف أسانيده، ولم يزد عليه شيئاً. . . وألف فيه شيخ الإسلام أبو الفضل ابن حجر كتاباً مات عنه مسوَّدة، فلم نقف عليه كاملاً، وقد ألفت فيه كتاباً حافلاً، موجزاً محرراً، لم يؤلف مثله في هذا النوع، سميته: لباب النقول في أسباب النزول. . .»[3].

وكتاب السيوطي رحمه الله بعيد عن التحقيق، حافل بالضعيف، ولو قدر الله أن يصل إلينا كتاب الحافظ ابن حجر لنفع الله به، فالحمد لله على كل حال.

---

(١) البخاري في فضائل الأنصار: باب قصة أبي طالب: الفتح (٧/٢٣٣).
(٢) المستدرك (٢/٣٣٦) وقال: (صحيح على شرطهما ولم يخرجاه) وقال الذهبي: صحيح.
(٣) الإتقان: (١/٩٢).

ومن أصح ما أُلِّف في ذلك كتاب «الصحيح المسند في أسباب النزول» للشيخ مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله.

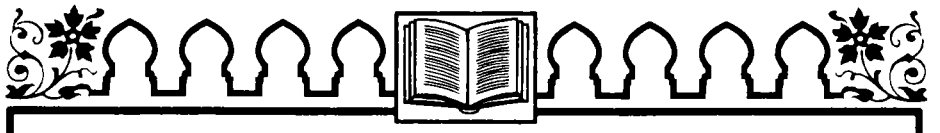

المبحث الرابع
كيفية نزول القرآن الكريم

وفي هذا المبحث مسائل:

أولاً: مراحل التنزيل:

قال الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ١].

وقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وفي هذه الآيات بيان لتنزيل القرآن مفرقاً، في أوقات وأزمان متعددة، ولنزوله جملة واحدة، في ليلة القدر من رمضان.

وقد روى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «فُصل القرآن من الذكر، فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل عليه السلام ينزِّله على النبي ﷺ، ويرتله ترتيلاً»(١).

وقال الحافظ ابن حجر: «وفي أخرى صحيحة لابن أبي شيبة والحاكم

---

(١) وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي.

أيضاً: (وضع في بيت العزة في السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ)، وإسناده صحيح»[1].

ثم قال رحمه الله: «وما تقدم من أنه نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم أنزل بعد ذلك مفرقاً هو الصحيح المعتمد»[1].

وروى الإمام ابن جرير نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: «وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[2].

وبهذا يتبين أن القرآن أنزل أولاً من اللوح المحفوظ، إلى بيت العزة في السماء الدنيا، جملة واحدة، في ليلة القدر من شهر رمضان، ثم تفرَّق نزوله، على مدى البعثة النبوية، وقد نسبه الإمام السيوطي للشعبي، ومجاهد، والسخاوي، وأبي شامة، وغيرهم[3].

ثانياً ـ معنى إنزال القرآن:

اختلفت الأقوال في معنى الإنزال، باختلاف مناهج القائلين، ومن ذلك:

ـ أن الملك تلقفه تلقفاً روحانياً من الله، وينزل به إلى الرسول.

ـ أن الله ألهم جبريل كلامه في السماء، وأداه جبريل في الأرض وهو يهبط في المكان.

ـ أن إنزاله إيجاد الكلمات والحروف الدالة على المعنى.

ـ أن يحفظه الملك من اللوح، وينزل به فيلقيه على النبي ﷺ.

ـ أن جبريل نزل بالمعاني دون الألفاظ.

والصواب أن الله تكلَّم بالقرآن، وسمعه جبريل منه، ونزل به جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ، وتلاه عليه، فالمنزل هو الحروف والمعاني معاً، لما رواه ابن أبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه: (إذا تكلم الله

---

(١) انظر «فتح الباري» (٨/٦٢٠).

(٢) «جامع البيان» لابن جرير: (١٥/٢٥٩).

(٣) الإتقان (١/١٣١، ١٣٢).

بالوحي سمع أهل السماء الدنيا صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، حتى إذا جاءهم جبريل فُزِّع عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل، ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق، فيقولون: الحقَّ الحقَّ)[1].

وعند البخاري بنحوه: (إذا قضى الله الأمر.. قالوا: ماذا قال ربكم..)[2].

فإنزال القرآن يعني: أن جبريل سمع القرآن من الله، ونزل به على رسول الله ﷺ.

قال شارح الطحاوية:

(وأنزله على رسوله وحياً، أي: أنزله إليه على لسان الملك، فسمعه الملك جبريل من الله، وسمعه الرسول محمد ﷺ من الملك، وقرأه على الناس)[3].

ثالثاً ـ تنزيل القرآن (تنجيمه):

في تنجيم القرآن وتفريق نزوله حِكَمٌ وفوائد، منها:

١ ـ تثبيت قلب رسول الله ﷺ، ومن معه من المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

فلا شك أن في تفريق النزول استصحاباً للوحي، وتجدداً له على مدى الأعوام، مما يبعث اليقين ويجدده باستمرار، مع تقلب الأحداث، والصعاب، من تكذيب، ومراءٍ، وصدٍّ، يؤكد هذا ما كان يجده رسول الله ﷺ من حزن عند تأخر الوحي عنه.

٢ ـ الإجابة عن السؤالات، كما في قصة الملاعنة، وحل المشكلات كما في قصة الإفك، وهذا لا يمكن في حال نزوله دفعة واحدة.

---

(١) انظر صحيح الجامع الصغير لشيخنا الألباني (٤٣٦): صحيح.

(٢) البخاري في التفسير: باب ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾: الفتح: (٢٣١/٨).

(٣) شرح الطحاوية، طبعة المكتب الإسلامي ص(١٩٥).

٣ ـ التصويب والتربية، كما في أسارى بدر، وفي يوم حنين، ويوم أحد.

٤ ـ توجيه الدعوة، ونقل خطواتها، كما في تدرج الدعوة من السرِّ إلى الجهر والصدع مع كف الأيدي، إلى الإذن بقتال المحاربين، إلى قتال المشركين كافة[١].

٥ ـ كشف كيد المنافقين والكفار.

٦ ـ إعطاء الآيات بنزولها مفرقة حقها من التلاوة والانتشار، والتدبر، قبل نزول ما بعدها، وما كان ذلك ليتيسر بنزول القرآن جملة، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

٧ ـ استمرار التحدي والإعجاز، وتطاول مدة نزول الآيات التي تنص على التحدي، مما يفيد تجدد التحدي للمشركين.

٨ ـ تدرج التكليف بما ييسر على الناس الإيمان بالرسالة، والاستجابة لشرائعها، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها، أن عراقياً سألها: (أي الكفن خير؟ قالت: ويحك وما يضرك، قال: يا أم المؤمنين، أريني مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلي أؤلف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيَّهُ أو أي قرأت قبل، إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده)[٢].

(١) وضمن ذلك تحديد واجب الوقت، وأولويات الدعوة الواجبة.

(٢) البخاري في كتاب فضائل القرآن: باب تأليف القرآن: الفتح: (٨/٦٥٥).

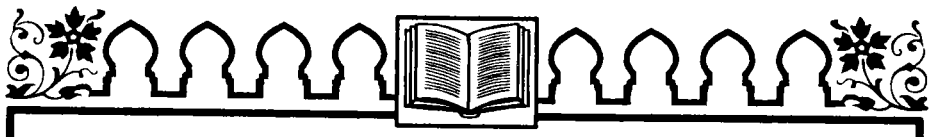

المبحث الخامس
المكي والمدني

أولاً ـ اصطلاح المكي والمدني:

اعلم أنه اختلف في معناه على أقوال، منها:

١ ـ أن المكي ما نزل بمكة، وما حولها، مثل عرفة، ومنى، والمدني ما نزل بالمدينة، وما حولها، مثل بدر وينبع.

ومدار هذا المفهوم على مكان النزول.

٢ ـ المكي ما نزل قبل الهجرة، وإن كان نزوله في غير مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة، ولو كان نزوله بمكة، والنظر في هذا المفهوم إلى زمان النزول.

٣ ـ المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة.

والنظر فيه يعود إلى المخاطب.

وإذا تبين المفهوم لا يضر اختلاف الاصطلاح، والراجح أن المكي ما نزل قبل الهجرة، ولو في غير مكة، والمدني ما كان نزوله بعد الهجرة، ولو كان نزوله بمكة.

ثانياً ـ فوائد معرفة المكي والمدني:

ذكر العلماء لذلك فوائد، منها:

١ ـ الاستعانة به على تفسير القرآن، بمعرفة حال المخاطبين، ومقاصد الخطاب المتنوعة بتنوع حال المجتمع وموقف الدعاة منه.

٢ ـ معرفة الناسخ والمنسوخ، من خلال التفريق بين ما نزل أولاً بمكة، وما نزل آخراً بالمدينة.

٣ ـ معرفة تاريخ التشريع الإسلامي، وذلك من خلال تتبع نزول الأحكام بين المرحلة المكية والمدنية.

٤ ـ استخلاص دروس فقه الدعوة، من خلال مقارنة السمات التشريعية للعهد المكي والعهد المدني بأحوال الجماعة، وتطوراتها، كالضعف الذي يلازم مرحلة النشأة والنمو، والتكامل الذي يتجلى في المراحل المتطورة، للوصول إلى ربط مهام المجتمع بمناطها من أحوال الدعاة، والوقوف على تنوع المهام والتكاليف بين المراحل المختلفة، واختلاف أنواع الابتلاءات.

ثالثاً ـ طرق معرفة المكي والمدني:

١ ـ يعرف ذلك بالنقل عمن شهد التنزيل من الصحابة، روى البخاري أن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (والذي لا إله غيره، ما نزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)[1].

وقالت عائشة رضي الله عنها: (ما أنزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده) أي: بالمدينة..

٢ ـ أن يعرف بتمييز المكي من المدني من خصائص كليهما، وهذا سبيل يسلك على تحفظ واحتياط، لأنه ظن، قد يخطئ ويصيب.

---

(١) البخاري: كتاب فضائل القرآن: باب القراء من أصحاب النبي: الفتح: (٦٦٣/٨).

رابعاً ـ خصائص القرآن المكي والمدني:

أ ـ خصائص المكي:

١ ـ كل سورة فيها (يا أيها الناس)، أو (كلا)، أو أولها حروف مقطعة، أو فيها قصة آدم وإبليس ـ سوى سورة البقرة، وآل عمران، والرعد ـ فهي مكية.

٢ ـ وكل سورة فيها ذكر المنافقين، أو أحكام الجهاد، أو الحدود، أو غلب عليها الطول وتفصيل الأحكام فهي مدنية.

وليس هذا على الإطلاق، ففي كثير من السور المكية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والنساء مدنية، وأولها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ . . .﴾[1].

وسرد المكي والمدني يطول، فيرجع فيه إلى المطولات من كتب الفن.

ب ـ خصائص المدني:

١ ـ ما كان الخطاب فيه بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقد يوجد في المكي.

٢ ـ ما غلب عليه الحلال والحرام، والفرائض، والآداب.

٣ ـ ما كان فيه ذكر المنافقين، وصفاتهم.

٤ ـ ما كان فيه مجادلة لأهل الكتاب.

٥ ـ آيات الحدود.

٦ ـ آيات الجهاد، وأحكامه.

٧ ـ الطوال من السور.

(١) انظر الإتقان: (١/٥٢ ـ ٥٣).

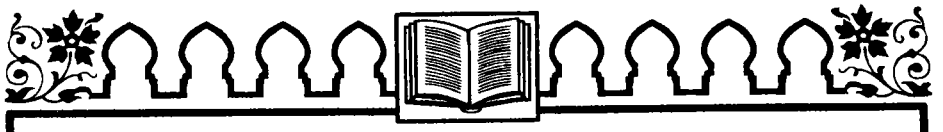

المبحث السادس
الأحرف السبعة

أولاً: نزول القرآن على سبعة أحرف:

قال رسول الله ﷺ: «**نزل القرآن على سبعة أحرف، المراء في القرآن كفر، ثلاث مرات، فما عرفتم منه فاعملوا، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه**»(١).

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أقرأني جبريل على حرف، فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف**»(٢).

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبَّرت حتى سلَّم، فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى

---

(١) انظر: السلسلة الصحيحة لشيخنا حفظه الله (٢٧/٤)، وقال: «وسنده صحيح على شرط الشيخين».

(٢) البخاري كتاب فضائل القرآن: باب أنزل القرآن على سبعة أحرف: الفتح: (٦٣٩/٨).

رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: «**أرسله، إقرأ يا هشام**»، فقرأ عليه للقراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: «**كذلك أنزلت**»، ثم قال: «**إقرأ يا عمر**»، فقرأت للقراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: «**كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه**»[1].

وقال الحافظ: «ووقع لجماعة من الصحابة نظير ما وقع لعمر مع هشام، منها لأبيّ بن كعب من ابن مسعود في سورة النحل كما تقدم، ومنها ما أخرجه أحمد عن أبي قيس مولى عمرو بن العاص عن عمرو أن رجلاً قرأ آية من القرآن، فقال عمرو: إنما هي كذا وكذا، فذكرا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**إن هذا القرآن أنزل علي سبعة أحرف، فأي ذلك قرأتم أصبتم، فلا تماروا فيه**» إسناده حسن[2].

ثانياً ـ المراد بالحروف السبعة:

اختلفت أقوال العلماء في ذلك على أقوال، أهمها:

١ ـ المراد التيسير والسعة، لا حقيقة العدد نسبه السيوطي للقاضي عياض.

٢ ـ ما يتغير حركاته دون صورته ومعناه، ونسبه لابن قتيبة.

٣ ـ المراد سبع لغات من لغات العرب، ونسبه لأبي عبيد، وثعلب وآخرين.

٤ ـ المراد سبعة أوجه من المعاني المتفقة بألفاظ مختلفة، نحو:

تعال وأقبل، وهلم وعجِّل وأسرع، وإليه ذهب سفيان بن عيينة، وابن جرير، ونسبه ابن عبدالبر لأكثر العلماء[3].

---

(١) البخاري كتاب فضائل القرآن: باب أنزل القرآن على سبعة أحرف: الفتح: (٦٣٩/٨).

(٢) فتح الباري: (٦٤٣/٨).

(٣) الإتقان: (١٤٥/١ ـ ١٤٨)، بتصرف.

٥ ـ ذهب بعضهم إلى أن المراد بالأحرف السبعة: سبعة أصناف من الكلام: زجر ـ أمر ـ حلال ـ حرام ـ محكم ـ متشابه ـ أمثال.

واحتجوا بحديث أخرجه أبو عبيد، وغيره عن ابن مسعود: (كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب، على سبعة أحرف: زاجر، وآمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثاله، فأحلُّوا حلاله، وحرموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا).

قال ابن عبدالبر: (هذا حديث لا يثبت، لأنه من رواية أبي سلمة بن عبدالرحمن عن ابن مسعود، ولم يلق ابن مسعود، وقد ردَّه قوم من أهل النظر، منهم أبو جعفر أحمد بن أبي عمران).

قلت: وأطنب الطبري في مقدمة تفسيره في الرد على من قال به، وحاصله أنه يستحيل أن يجتمع في الحرف الواحد هذه الأوجه السبعة، وقد صحح الحديث المذكور ابن حبان.

وليس المراد بالأحرف السبعة أن كل لفظة من القرآن تُقرأ على سبعة أوجه، قال ابن عبدالبر: (وهذا مجمع عليه[1]، بل هو غير ممكن، بل لا يوجد في القرآن كلمة تُقرأ على سبعة أوجه، إلا القليل، مثل: ﴿**عبد الطاغوت**﴾)[2].

تنبيه: (قال أبو شامة: ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل)[3].

وقد ذكر أبو شامة اختلاف العلماء في اجتماع الأحرف السبعة في

---

(١) مجمع على امتناعه.

(٢) الفتح: (٨/٦٤٤).

(٣) الفتح: (٨/٦٤٧).

المصاحف الموجودة بأيدي الناس، فذهب ابن الباقلاني إلى أنها مجتمعة في المصاحف، وذهب الطبري وسفيان ابن عيينة وابن وهب إلى خلافه.

قال أبو شامة: (والحق أن الذي جمع في المصحف هو المتفق على إنزاله، المقطوع به، المكتوب بأمر النبي ﷺ، وفيه بعض ما اختلفت فيه الأحرف السبعة، لا جميعها.. وما عدا ذلك من القراءات مما لا يوافق الرسم، فهو مما كانت القراءة جوزت به توسعة على الناس وتسهيلاً، فلما آل الحال إلى ما وقع من الاختلاف في زمن عثمان، وكفَّر بعضهم بعضاً، اختاروا الاقتصار على اللفظ المأذون في كتابته، وتركوا الباقي)[1].

وقال أبو العباس بن عمار: (أصح ما عليه الحذَّاق: أن الذي يقرأ الآن بعض الحروف السبعة المأذون في قراءتها، لا كلها، وضابطه ما وافق رسم المصحف)[2].

ثالثاً ـ فوائد اختلاف الحروف السبعة:

والمراد ما بقي منها بعد جمع الناس على المصحف العثماني، الذي اعتمده الصحابة بتوجيه عثمان بن عفان، وهو الخليفة الراشد رضي الله عنه، وحرق بقية المصاحف، وأما ما احتوته المصاحف قبل الجمع العثماني فشر بقائه لا يخفى.

١ ـ جمع الأمة على لسان واحد، وحرف واحد، وقد تحقق هذا في عصر الصحابة.

٢ ـ بيان حكم ما دل عليه تعدد الحروف؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ . . .﴾ [النساء: ١٢].

قرأ سعد بن أبي وقاص: **﴿وله أخ أو أخت من أم﴾** فتبين

---

(١) الفتح: (٨/٦٤٦ ـ ٦٤٧).

(٢) الفتح: (٨/٦٤٦ ـ ٦٤٧).

أن المراد في الآية الأخوة للأم، دون الأخوة الأشقاء، ومن كانوا لأب.

٣ ـ الدلالة على اختلاف الحكم، باختلاف الحال:

مثل قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ . . .﴾ قرئ بنصب ﴿وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾ وجرها، والنصب دال على وجوب الغسل، لأن العطف يكون بذلك على ﴿وُجُوهَكُمۡ﴾، والجر دال على وجوب المسح، لأن العطف يكون على ﴿بِرُءُوسِكُمۡ﴾.

وثبت في السنة المتواترة والإجماع، أن الغسل للقدم عند عدم لبس الخف، والمسح عند لبسه.

٤ ـ بيان معنى غامض:

مثل قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾ قرئ: (كالصوف) في قراءة ابن مسعود[1].

(١) مناهل العرفان للزرقاني (١/١٢٥ ـ ١٢٦) بتصرف.

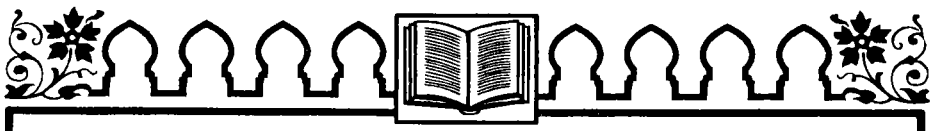

المبحث السابع
القراءات السبع

القراءات، جمع قراءة، وهي لغة: مصدر قرأ.

واصطلاحاً: طريقة أحد أئمة القراءة في نطق القرآن، الجامعة لما أجمعوا عليه، وما خالف غيره من الأئمة فيه من الحروف والصفات في قراءته.

وفي هذا المبحث مسائل:

أولاً ـ أنواع القراءات:

١ ـ **المتواترة**: وهي ما نقله جمع عن جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب، وذلك كالقراءات التي اتفقت الطرق في نقلها عن القراء السبعة.

والقراءات السبع متواترة بلا خلاف، وبقية العشر مختلف في تواترها، وكلها معدودة من القرآن، تصح القراءة بها، ويجب اعتقادها قرآناً.

٢ ـ **المشهورة**: وهي ما صح سنده، وإن لم يبلغ التواتر، ووافق العربية، والرسم، واشتهر عند القراء، قال السيوطي: (فلم يعده ابن الجزري من الغلط، ولا من الشذوذ، ويقرأ به، على ما ذكره ابن الجزري، ويفهم من كلام أبي شامة السابق)[1].

---

(١) الإتقان: (٢٤١/١).

٣ ـ الآحاد: وهي ما صح سنده، وخالف الرسم، أو العربية، أو لم يشتهر.

وهذا لا يقرأ به، ويعد من الضعيف، أو الشاذ، أو الباطل قراءة، ومثل هذه القراءة تحمل على التفسير، ويحتج بها فيه، كما يفهم من كلام الأنباري، وابن الجزري.

قال الإمام السيوطي: وقد عقد الترمذي في جامعه، والحاكم في مستدركه، لذلك باباً أخرجا فيه شيئاً كثيراً صحيح الإسناد[١].

ومناط الاحتجاج بالقراءة الشاذة، كشأن الاحتجاج بحديث الواحد الذي صح نقله من مبتدئه إلى منتهاه، دون شذوذ، ولا علة، وإبطال الاحتجاج به يستلزم إبطال الاحتجاج بالآحاد من السنة، وهذا مخالف لإجماع أهل السنة.

ثانياً ـ أركان القراءة الصحيحة:

قال ابن الجزري: (كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً، وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة، التي لا يجوز ردُّها، ولا يحل إنكارها، بل هي[٢] الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها)[٣].

وقال السيوطي: (هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف، صرح بذلك الداني، ومكي، والمدوي، وأبو شامة، وهو مذهب السلف الذي لا يعرف عن أحدٍ منهم خلافه)[٤].

قال ابن الجزري: (فقولنا في الضابط: ولو بوجه، نريد به وجهاً من

---

(١) سنن الترمذي كتاب القراءات (١٢٦/٨) والمستدرك في التفسير: باب قراءة النبي ﷺ (٢٣٠/٢).

(٢) كذا قال، ولعل الصواب: (بل هي من الأحرف السبعة).

(٣) الإتقان: (٢٣٦/١).

(٤) الإتقان: (٢٣٧/١).

وجوه النحو، سواء كان فصيحاً، مجمعاً عليه، أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله، إذا كانت القراءات أفصح أم مما شاع وذاع، وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح، إذ هو الأصل الأعظم، والركن الأقوم).

وقال: (ونعني بموافقة أحد المصاحف ما كان ثابتاً في بعضها دون بعض، كقراءة ابن عامر: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . . .﴾ بغير واو، فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي).

ولو احتمالاً: ونعني به ما وافقه ولو تقريراً كـ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فإنه كتب في الجميع بلا ألف، فقراءة الحذف توافقه تحقيقاً، وقراءة الألف توافقه تقديراً.

قال: وصح مسندها، نعني أن يروي تلك القراءة العدل الضابط عن مثله، حتى ينتهي، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة القراءة، غير معدودة من الغلط أو الشذوذ[1].

مثاله، قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤].

ـ الفتح في لفظ ضعف: قراءة حمزة، ورواية شعبة، وطريق عبيد ابن الصباح عن حفص[2].

خامساً ـ القراء العشرة:

١ ـ نافع المدني: أبو رويم بن عبدالرحمن بن أبي نعيم الليثي، أصله من أصفهان، توفي بالمدينة سنة تسع وستين ومائة، يرحمه الله.

راوياه: قالون: عيسى بن مينا المدني أبو موسى، توفي في المدينة، سنة عشرين ومائتين رحمه الله.

---

(١) الإتقان: (١/٢٣٧ ـ ٢٣٩).

(٢) البدور الزاهرة: ص(١٠).

وورش: عثمان بن سعيد المصري أبو سعيد، توفي بمصر سنة سبع وتسعين ومائة، يرحمه الله.

٢ ـ **أبو عمرو بن العلاء**: زيان المازني البصري، توفي بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة، يرحمه الله.

راوياه: الدوري: أبو عمر حفص بن عمر بن عبدالعزيز الدوري النحوي، توفي سنة ست وأربعين ومائتين، يرحمهما الله.

والسوسي: أبو شعيب صالح بن زياد بن عبدالله السوسي توفي سنة إحدى وستين ومائتين، يرحمه الله.

٣ ـ **ابن كثير**: عبدالله بن كثير المكي، من التابعين، توفي بمكة سنة عشرين ومائة، يرحمه الله.

راوياه: البزي: أحمد بن محمد بن عبدالله بن أبي بزة المؤذن المكي، توفي بمكة سنة خمسين ومائتين، يرحمه الله.

وقنبل: محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن خالد بن سعيد المكي المخزومي، توفي بمكة سنة إحدى وتسعين ومائتين، يرحمه الله.

٤ ـ **ابن عامر عبدالله الشامي اليحصبي**: قاضي دمشق في خلافة الوليد بن عبدالملك، يكنى أبا عمران، وهو من التابعين، توفي بدمشق سنة ثمان عشرة ومائة، يرحمه الله.

وراوياه: هشام بن عمار بن نصير القاضي الدمشقي، أبو الوليد، توفي بدمشق سنة خمس وأربعين ومائتين، يرحمهما الله.

وابن ذكوان: عبدالله بن أحمد بن بشير القرشي الدمشقي، أبو عمرو، توفي بدمشق سنة ثنتين وأربعين ومائتين، يرحمه الله.

٥ ـ **عاصم بن أبي النجود**: ويقال له ابن بهدلة، أبو بكر، من التابعين، توفي بالكوفة سنة ثمان وعشرين ومائة، يرحمه الله.

وراوياه: شعبة بن عياش بن سالم الكوفي، أبو بكر، توفي بالكوفة سنة ثلاث وتسعين ومائة، يرحمه الله.

وحفص بن سليمان بن المغيرة البزاز الكوفي، أبوعمرو، توفي سنة ثمانين ومائة، يرحمه الله.

٦ ـ **حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات الكوفي**: أبو عمارة، توفي بحلوان في خلافة أبي جعفر المنصور سنة ست وخمسين ومائة، يرحمه الله.

وراوياه: خلف بن هشام البزاز، أبو محمد، توفي ببغداد سنة تسع وعشرين ومائتين.

وخلاد بن خالد، ويقال ابن خليد الصير في الكوفي، أبو عيسى، توفي بالكوفة سنة عشرين ومائتين، رحمهما الله.

٧ ـ **الكسائي**: علي بن حمزة النحوي الكوفي، أبو الحسن، توفي بالري، حين توجه إلى خراسان صحبة الرشيد، سنة تسع وثمانين ومائة، يرحمه الله.

وراوياه: أبو الحارث الليث بن خالد البغدادي، توفي سنة أربعين ومائتين، يرحمه الله. وحفص الدوري الراوي عن أبي عمرو، يرحمه الله، وقد تقدم.

٨ ـ **أبو جعفر**: يزيد بن القعقاع المدني، توفي بالمدينة سنة ثمان وعشرين ومائة، يرحمه الله.

وراوياه: ابن وردان عيسى بن وردان المدني، أبو الحارث، توفي بالمدينة، قريباً من سنة ستين ومائة، يرحمه الله.

وابن الجماز سليمان بن مسلم بن الجماز المدني، أبو الربيع، توفي بالمدينة بعد السبعين ومائة، يرحمه الله.

٩ ـ يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي: أبو محمد، توفي بالبصرة سنة خمس ومائتين، يرحمه الله.

راوياه: رويس: محمد بن المتوكل اللؤلؤي البصري، أبو عبدالله، توفي بالبصرة سنة ثمان وثلاثين ومائيتن، يرحمه الله.

وروح بن عبدالمؤمن البصري النحوي، أبو الحسن، توفي سنة أربع أو خمس وثلاثين ومائتين، يرحمه الله.

١٠ ـ خلف بن هشام بن ثعلب البزاز البغدادي: أبو محمد، توفي سنة تسع وعشرين ومائتين، يرحمه الله.

راوياه: إسحاق بن إبراهيم بن عثمان الوراق المروزي البغدادي، أبو يعقوب، مات سنة ست وثمانين ومائتين، يرحمه الله.

وإدريس بن عبدالكريم البغدادي الحداد، أبو الحسن، توفي سنة اثنتين وتسعين ومائتين[1]، يرحمه الله.

(١) انظر (البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة) الشيخ عبد الفتاح القاضي.

المبحث الثامن
إعجاز القرآن

الإعجاز: تحقيق العجز. تقول: أعجزته، إذا صيرته عاجزاً.

والإعجاز: إثبات العجز، ويكون بطلب الفعل على وجه التحدي، وثبوت العجز عنه.

وإعجاز القرآن: إثبات عجز الثقلين: الإنس والجن عن الإتيان بمثل هذا القرآن، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة بعد أن تحداهم مراراً وتكراراً.

أولاً ـ ثبوت الإعجاز:

وقد وقع الطلب في القرآن للإتيان بمثله، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال كذلك: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

ووقع التحدي بعشر سور من مثله، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣، ١٤].

ثم وقع التحدي بسورة واحدة من مثله في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

وقد وقع هذا التحدي في عصور ازدهار العربية، إبَّان ازدهار الأسواق الأدبية، وعصور المعلقات المشهورة، ورواج سوق الشعر والنثر والتفاخر، وصفاء القريحة، ونضوج الطبائع.

وكان العرب الذين أمروا بالإتيان بمثل القرآن أشد شيء عداوة لدعوة رسول الله ﷺ، وأحرصه على تكذيبها، وإطفاء نورها، وقد وغرت صدورهم، واحمرَّت أنوفهم، وجاشت حفيظتهم، بسب آلهتهم، وتسفيه عظمائهم.

وقد سلكوا لتكذيب هذه الدعوة كل سبيل، وركبوا كل صعب وجموح، من استهزاء، وعداوة، وقطيعة، ومحاربة، حتى سفكت دماؤهم، وذل كبراؤهم وأشرافهم، ثم لم يحاول أحد منهم مع هذا كله أن يحاكي القرآن، ولو في أصغر سورة من سوره، ولم يُؤثَر عن أحدهم أنه ادّعى قدرة على ذلك، مع إقدامهم وجرأتهم على القول إن محمداً ﷺ ساحر، وكاهن، وشاعر.

فلما تركوا ذلك ولم يفعلوه أو يحاولوه، وهم أشد ما يكونوا رغبة في تكذيب رسالته، وهو أهون لديهم - لو أمكنهم - من كل ما فعلوه، دل هذا على أن القرآن ليس كلام مخلوقٍ من البشر أو غيرهم، وأنه كلام خالق البشر، وأن محمداً مرسل من عند الله بالهدى ودين الحق.

وإذا عجز العرب عن محاكاة شيء من القرآن، وهم أوفر ما يكون فصاحة وبلاغة وامتلاكاً لناصية العربية، وسلامة من العجمة، واختلاط الألسن، فَغَيْرُ العرب، من روم وهند، وفرس، وعجم، ومن جاء في عصور اختلاط الألسن، أحرى بالعجز، وأولى بالعيِّ.

ثانياً ـ ثمرة الإعجاز:

إعجاز القرآن هو معجزة نبينا محمد ﷺ الأولى، مع ما أوتيه من معجزات بيِّنة، وآيات ساطعة، ومعجزة القرآن ماثلة أمام العقول، خالدة إلى قيام الساعة، تقرر الحجة الناطقة أن القرآن كلام الله، والإسلام دينه الذي لا يقبل سواه من مخلوق، ومعجزة القرآن دالة بخلودها على خلود هذا الدين، وبقائه ما بقيت الدنيا.

ثالثاً ـ وجه إعجاز القرآن:

ورد في معنى الإعجاز أقوال كثيرة، من أهمها:

١ ـ زعم النَّظَام أن الإعجاز كان بالصَّرفة، أي أن العرب كانوا قادرين على معارضة القرآن والإتيان بمثله، إلا أن الله صرفهم عن ذلك، وسلبهم القدرة عليه، فكان معجزاً.

وهذا زعم لا يدل عليه عقل ولا نقل، وهو مستلزم للقول بعدم الإعجاز في الحقيقة، بل يكون المعجز والحالة هذه هو الله سبحانه، لا القرآن في نفسه[1].

٢ ـ أن الإعجاز وقع بما في القرآن من الإخبار عن الأمور الغيبية، وأخبار الأمم البائدة.

٣ ـ أن الإعجاز بما في القرآن من الشرائع المحكمة، والخلق الفاضل، والتوجيه السامي.

٤ ـ أن الإعجاز بما في القرآن من علوم كونية، ومطابقة العلوم الحديثة، والكشوف المعاصرة لمقرراته، كعلم الأجنة، وعلم أعماق البحار، وغير ذلك.

٥ ـ أن إعجاز القرآن إنما هو في فصاحة ألفاظه، وبلاغة سياقه، وقوة تركيبه، وسمو معانيه، وشرف أغراضه.

---

(١) انظر الإتقان: (٢/١٠٠٢).

٦ ـ وقد زعم الإمام السيوطي أن الإعجاز وقع بالألفاظ الدالة على الكلام القديم، لا بالكلام القديم، ويرد عليه بأن الألفاظ الدالة على الكلام القديم ليست كلام الله بل هي من كلام المخلوق كما هو قول الأشاعرة[1]، وأن الله تحدى الناس بالكلام الذي يسمعونه ويقرؤونه، لا بما في اللوح المحفوظ، لأن ما في اللوح لا يمكن الوصول إليه وأن القول بحكايته صريح بوقوع مثله من غير الخالق.

وبيان ذلك كالتالي:

ـ أن الأمر بمحاكاة القرآن ليس أمر تكليف شرعي، بل هو أمر إعجاز، فهو خارج عن مباحث التكليف الشرعي وضوابطه ولوازمه.

ـ أن غاية الأمر بمحاكاة القرآن إثبات المفارقة بين كلام المخلوق وكلام الخالق، وهو مؤسس على عجز البشر عن هذه المحاكاة، لأنها خارجة عن قدرتهم واستطاعتهم.

ـ إن افتراض التكليف بما يمكن في هذا الموطن فرض باطل مستحيل، ولو فرض التسليم به لدل على أن محاكاة القرآن من البشر ممكنة، وأن القرآن ليس كلام الله قطعاً، وهذا من أبطل الباطل، لأنه يفضي إلى تكذيب الرسول ﷺ، والرسالة.

ـ وأما قوله إن كلام الله القديم لا يمكن الوقوف عليه، فهو وهم بحت من أوهام المعطلة، لم يؤثر عن أحد من أئمة السلف، ولا دل عليه دليل من كتاب أو سنة أو أثر.

ـ وهو إلى ذلك يقتضي نسبة النقص إلى كلام الله، إذ يحكم باستحالة وقوف البشر عليه.

ـ وهو مخالف للأدلة الكثيرة القاضية بإمكان سماعه وتلاوته، كمثل

---

(١) انظر الإتقان: (٢/١٠٠٥).

قوله تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ . . .﴾ [التوبة: ٦]، وقول النبي ﷺ: «**من قرأ حرفاً من كتاب الله. . .**»[1].

- وهذا مخالف لمذهب السلف في القول إن المنزَّل هو كلام الله حقيقة، المتلو، المحفوظ، المسموع، المكتوب، وإن التلاوة والسمع والكتابة غير المتلو المحفوظ المسموع المكتوب.

- والحق الذي لا مرية فيه أن الإعجاز وقع بكلام الله غير المخلوق، الذي تكلم الله به، ولا يشبه كلام المخلوقين، ولم يقع بحكايته، ولا روايته.

- والحق أن الإعجاز إنما هو في لغة القرآن، مفرداته، ونظمه، وبلاغته، وسمو معانيه، وشرف أغراضه، إذ هو في جميع ذلك في الذروة العليا، سواء أوائله وأواخره، ووعده ووعيده، وشرائعه وعلومه.

وتقرير ذلك فيما يلي:

- إن من الفروق المقررة عند أهل السنة، وعند عامة المسلمين؛ أن الحديث القدسي غير معجز، والقرآن معجز، وفي الحديث القدسي من العلوم الإلٰهية من جنس ما في القرآن الكريم، وكذلك في السنة النبوية، وهي من لفظ رسول الله ﷺ من بيان المتشابه وتفصيل المجمل ما ليس في القرآن، وهي ليست معجزة باتفاق.

فثبت أن هذه العلوم الشرعية، والغيبية، والكونية، ليست مناط الإعجاز، ولا سببه.

- والقرآن لم يتَحدَّى المشركين وغيرهم بألفاظ السنة أو الحديث القدسي، على ما فيهما من عظمة في التشريع والبيان، وجوامع الكلم، وجزالة المعاني.

---

(١) رواه الترمذي: (٢٩١٢)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه شيخنا الألباني في صحيح سنن الترمذي: رقم (٢٣٢٧).

ـ إن الكتب السابقة من توراة وإنجيل، وهي من كلام الله تعالى على الإجمال، لم توصف بالإعجاز، برغم ما فيها من العلوم التشريعية، والغيبية، وبعض الآيات الكونية.

وهذا مما يؤكد أن هذه العلوم ليست سر الإعجاز ولا سببه.

فما يلهج به كثير من الدعاة والشباب المعاصرين من الحديث عن الإعجاز العلمي، أو التشريعي للقرآن الكريم لا يصح اعتباره في إعجاز القرآن، بل هو من دلائل عظمة القرآن، ومن آيات الله الشرعية المطابقة للآيات الكونية، ومن العلوم الباهرة القاطعة بصدق نسبة القرآن إلى الله سبحانه وتعالى، وهي مقاصد ليست بعيدة عن مقاصد الإعجاز، وإن لم تكن هي الإعجاز عينه.

وهي بعد من وسائل الدعوة العلمية التي ينفع الله بها من شاء من عباده، ويهدي بها إلى دينه المستقيم.

المبحث التاسع
المحكم والمتشابه

ويأتي الكلام على كل منهما على حدته.

النوع الأول ـ المحكم:

أولاً: معنى المحكم: الإحكام هو الإتقان، والمحكم اسم مفعول من أحكم.

والإحكام يعني: الفصل، والتمييز، والفرق والتحديد، وما به يتحقق الأمر، ويحصل إتقانه، ويدخل فيه معنى المنع.

والمحكم من الكلام: ما كان واضح الدلالة، بيِّناً بنفسه، لا يحتاج في فهمه للرجوع إلى غيره، ولا يلتبس على أحد.

ثانياً ـ المحكم في القرآن:

والإحكام في القرآن أنواع:

١ ـ الإحكام العام:

ويراد به إحكام ألفاظه، وتركيبه، وبلاغته، فالقرآن كله محكم بهذا المعنى، بل هو في الدرجة العليا من الإحكام، لا يدانيه في ذلك بيان، ولا كلام.

قال تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ [يس: ١ ـ ٢]. وقال: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١].

٢ ـ الإحكام النسبي (الخاص):

هو قسيم المتشابه النسبي المذكور في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧].

وفي تعيينه أقوال:

أ ـ أنه الفرائض والأحكام، ومعظم الحلال والحرام، والحدود البينات.

ب ـ الناسخ، وما يعمل به.

ت ـ ما استقل ببيان المراد منه، وما كان تنزيله تأويله.

ث ـ ما لا يحتمل غير وجه واحد من المعنى.

ج ـ ما كان أصلاً في بيان غيره يرجع إليه في تفسيره.

ح ـ ما اتفق الصحابة على معناه، ولم يختلفوا فيه.

والحق أن هذا كله من المحكم:

أ ـ فالفرائض والمحرمات والفضائل والحدود المعلومة كلها داخلة في قول النبي ﷺ: «**إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن**...»[1]

---

(١) رواه البخاري.

ب - وعلم الناسخ وهو مما يحكم الفرائض، ونصوص الأحكام، مما لا يعلمه الكثير من المسلمين، واختص به علماؤهم.

ت - وما عرف المراد به إن عرف من نصه، كان من المحكم القطعي الذي لا يدخله التشابه.

ث - وما كان تنزيله تأويله هو من المحكم القطعي، وهو من أم الكتاب.

ج - ومثله ما لا يحتمل غير وجه واحد من المعاني.

ح - وما كان أصلاً محكماً لبيان غيره كذلك.

خ - وما لم يختلف عليه في زمن الصحابة فهو مثل ذلك في إحكامه أيضاً.

وكل ذلك من أم الكتاب الذي يُرد إليه المتشابه لبيانه.

ويدخل في هذا النوع:

- قطعيات العقيدة في القرآن الكريم، من أقسام الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وأركان الإيمان جميعها.

- قطعيات الفرائض، وقطعيات المحرمات، ومبادئ الإسلام، وأمهات الأخلاق وما يدخل تحت المعلوم من الدين بالضرورة.

- ما أجمع عليه الصحابة من أحكام، مما لم يعرف فيه خلاف بينهم، أو لم يعرف فيه خلاف بين مجتهدي أهل السنة.

النوع الثاني - المتشابه:

ومن المتشابه:

١ - **تشابه الإتقان والإحكام**: قال الله سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣]. والقرآن كله متشابه بهذا المعنى.

٢ ـ **تشابه الدلالة**: أي عدم تميزها وانفصالها وظهورها، إذ هي تشبه المحكم من وجه، وتخالفه من وجه، فلا يترجح المراد منها، قال تعالى: ﴿... إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ...﴾ [البقرة: ٧٠] وقال: ﴿جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ...﴾ [الرعد: ١٦].

٣ ـ **اشتباه الحقيقة**: أي خفاؤها وعدم ظهورها، قال تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ...﴾ [الأنعام: ١٤١]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، والتشابه هنا من الاشتباه لا من المشابهة.

وقد دلَّ عليه الوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧].

وأنواع المتشابه في القرآن ثلاثة:

١ ـ المتشابه العام:

وهو التشابه في فصاحة كلمات القرآن، وبلاغة تركيبه وتأليفه، لا يختلف في ذلك أوله وأوسطه وآخره، ولا أحكامه وقصصه، ووعده ووعيده، فالقرآن كله متشابه بهذا المعنى.

٢ ـ المتشابه الخاص:

وهو قسيم الإحكام الخاص، أو النسبي الذي في آية آل عمران، وهو ما يعرفه الراسخون في العلم كما دل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] وقول النبي ﷺ:

«وبينهما أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس»[1].

ومن صفاته:

أ ـ أنه يحتمل وجوهاً عديدة، منها ما يشبه المحكم، ومنها ما يخالفه.

ب ـ يحتاج إلى بيان من خارجه لإزالة التباسه وإشكاله.

ت ـ أنه لا يعلمه كثير من الناس، ويختص به علماً طائفة العلماء، وهم الراسخون في العلم، كما يدل الوقف الصحيح على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

وهذا التشابه يتعلق بمعاني الآيات ودلالاتها، ولا يغيب علمه عن مجموع علماء الأمة. فيستحيل أن يخاطب الله نبيه وعباده بما لا يمكن فهمه، ولا تدبره واتباعه.

ويدخل في هذا النوع من المتشابه:

أ ـ المنسوخ قبل العلم بناسخه.

ب ـ المطلق قبل العلم بمقيداته.

ت ـ العام قبل معرفة مخصصاته.

ث ـ المشترك قبل تعيين أحد احتمالاته.

ج ـ المجمل قبل معرفة مفصله.

٣ ـ المتشابه الكلي أو المطلق:

وهو ما استأثر الله تعالى بعلمه، وحجبه عن مخلوقاته، فلم يُعلم به أحداً منهم، وقد دلت عليه آية آل عمران على الوقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ

---

(١) رواه البخاري.

تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهو متعلق بحقيقة، وكُنْهِ وتأويل بعض ما أخبر عنه القرآن.

مثل وقت الساعة تحديداً، وحقيقة ما يقع في ذلك اليوم، وحقيقة ما في الآخرة من ثواب وعقاب، وحقيقة ما أثبته الله لنفسه من صفات، وحقيقة ذاته سبحانه وتعالى عن قول المشبهة والمكيفة، وتنزهاً عن قول المعطلة والمؤولة.

ومن ذلك: حقيقة الروح، وكنه مادتها وتلوينها، والبرزخ، وحقيقة ثواب القبر ونعيمه، وعذابه، وأمثال ذلك.

المبحث العاشر
الناسخ والمنسوخ

إن علم الناسخ والمنسوخ من أجلّ علوم القرآن العظيم، وقد تناقلت كتب الفن أن علياً رضي الله عنه، قال لقاصٍّ: (أتعرف الناسخ من المنسوخ؟) قال: لا، قال: (هلكت وأهلكت)، فقال: (أبو من أنت؟) قال: أبو يحيى، قال: (أنت أبو اعرفوني)، وأخذ بأذنه ففتلها، وقال: (لا تقصَّ في مسجدنا بعدُ)[1].

وقد صنف في هذا الباب علماء كثيرون[2] ومنهم:

أبو عبيد القاسم بن سلامٍ، وأبو داوود السجستاني، وأبو جعفر النحاس، وابن الأنباري، ومكي بن أبي طالب، وابن العربي[3].

أولاً ـ معنى النسخ:

للنسخ معان أربعة، هي:

١ ـ **الإزالة**: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا

---

(١) انظر الناسخ والمنسوخ، لهبة الله بن سلامة المقري، ص(١٩).

(٢) كتاب «الناسخ والمنسوخ» لقتادة بن دعامة، «والناس والمنسوخ» للزهري، وكتاب «المصفى» لابن الجوزي، «وناسخ القرآن ومنسوخه» لابن البارزي، وكلها مطبوعة في جزء واحد، في مؤسسة الرسالة.

(٣) الإتقان: (٢/٧٠٠).

نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج: ٥٢].

٢ ـ **التبديل**: قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [النحل: ١٠١].

٣ ـ **النقل من موضع إلى آخر**: منه نسخ الكتاب، أي نقل ما فيه إلى نسخة أخرى، قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩].

٤ ـ **التحويل**: كتناسخ المواريث، أي تحويلها من وارث إلى غيره.

ـ وقوع النسخ في القرآن:

مذهب أهل السنة من لدن أصحاب رسول الله ﷺ إلى يومنا، هو القول بجواز النسخ في القرآن، ووقوعه، وخالف في ذلك الرافضة، والمعتزلة، وشرذمة من شواذ العقلانيين المعاصرين.

دلَّ على ذلك آيات في كتاب الله تعالى، قال عز وجل: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل: ١٠١]، وقال: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

ـ معنى النسخ في القرآن:

النسخ في القرآن يكون بنسخ تلاوة الآية وحكمها، أو نسخ الحكم مع بقاء التلاوة، أو نسخ التلاوة مع بقاء الحكم.

ـ والنوع الأول كما روته عائشة رضي الله عنها: (كان فيما أنزل: عشر رضعات معلومات يحرِّمن فنسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن(*))[1].

(*) قال أهل العلم أن نسخ الآيات جاء قبيل وفاته ﷺ، فلم يبلغ النسخ كثيراً من الناس فكانوا يقرؤونهن قبل أن يعلموا بالنسخ.

(١) رواه مسلم كتاب الرضاع انظر مسلم بشرح النووي (٢٩/١٠).

- والثاني منه، قوله تعالى: ﴿... وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ ...﴾ [البقرة: ١٨٤].

نُسخت حكماً بقوله تعالى: ﴿... فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ...﴾ [البقرة: ١٨٥].

- ومنه الثالث، آية الرجم المنسوخة: **﴿الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة﴾**[1].

ثانياً - كيف يعرف النسخ؟

١ - يعرف النسخ بالنقل الصحيح عن النبي ﷺ، أو أحد أصحابه، كأن يقول: نسخت آية كذا، آية كذا.

وقد يحكم بالنسخ عند وقوع تعارض مقطوع به، مع العلم بتاريخ المتقدم والمتأخر.

٢ - ولا يرجع فيه إلى قول عامة المفسرين، مما قد يسميه البعض إجماعاً.

٣ - ولا يعتمد فيه اجتهاد عارٍ عن النقل[2].

ثالثاً - أنواع النسخ (باعتبار الناسخ):

١ - **نسخ القرآن بالقرآن**: وهو جائز شرعاً، لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وهو واقع كثيراً في القرآن، واستقصاءه في كتب الناسخ والمنسوخ.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

نسخت قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣].

---

(١) انظر الإتقان: (٢/٧٢٢).

(٢) انظر الإتقان: (٢/٧١٧).

إذ أنه لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾[1].

ووجه الشاهد أن الصيام الأول الذي كتب على الذين من قبلنا فيه عدم قربان النساء في رمضان، فنسخ منه ذلك، وأبيح الجماع ليلة الصيام.

٢ ـ **نسخ القرآن بالسنة**: وهو جائز شرعاً، لأن النسخ من أقسام البيان، والسنة هي مبينة للقرآن، فيجوز أن تنسخه.

وهو واقع ثابت، من ذلك نسخ آية الوصية، وهي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة: ١٨٠].

نسخها حديث: «**لا وصية لوارث**»[2].

ومنه نسخ حل لحوم الحمر الأهلية المنصوص عليه بالحصر الصريح في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وذلك بالسنة الصحيحة الثابت تأخرها عنه، لأن الآية مكية، نزلت قبل الهجرة بلا خلاف، وتحريم الحمر الأهلية بالسنة واقع بعد ذلك في خيبر، وبعد العمل بدلالة الحصر، وأكل لحوم الحمر[3].

وحديث تحريم لحوم الحمر الأهلية آحاد غير متواتر، فلا يمنع نسخ القرآن بالسنة المتواترة، وحديث الآحاد.

وقد منع الإمام الشافعي رحمه الله نسخ القرآن بالسنة، لقوله تعالى:

---

(١) البخاري: التفسير، باب ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾، انظر الفتح (٨/٣٠).

(٢) صحيح الجامع: (٧٥٧٠)، رواه الدارقطني عن جابر.

(٣) انظر مذكرة أصول الفقه، للشيخ الشنقيطي، ص(٨٦ ـ ٨٧).

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾، وغير القرآن ليس خيراً منه ولا مثله.

والصواب أن السنة وإن لم تكن في ألفاظها مثل القرآن، لأن كلام الله أشرف من كل كلام، لكنها في قوة التشريع وفي التحليل تجتمع مع القرآن أنهما جميعاً وحي خالص من عند الله كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤]، وكذلك لقول رسول الله ﷺ: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، لا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه...**»[1].

فهذا نص في أن السنة مثل القرآن، وهي كذلك بالنظر إلى كونها وحياً من الله تعالى، فالقرآن في بيانه أحوج إلى السنة، من السنة إلى القرآن.

٣ ـ **نسخ السنة بالقرآن**: وقد ذهب إليه طائفة من العلماء، ومنعه الشافعي وطائفة، قال الشافعي: (وهكذا سنة رسول الله ﷺ، لا ينسخها إلا سنة لرسول الله، ولو أحدث الله لرسوله في أمرٍ سن فيه غير ما سن رسول الله لسن فيما أحدث الله إليه، حتى يبين للناس أن له سنة ناسخة للتي قبلها مما يخالفها)[2].

وأنه لا يحتمل أن تُنسخ سنة لا تؤثر السنة التي نسختها، ولو جاز هذا لضاع العمل بالسنة، وقال الناس في كل ما جاءهم من سنة: لعلها منسوخة، ولو نُسخت سنة بقرآن كانت للنبي ﷺ سنة تبين أن سنته الأولى منسوخة.

وخلاصة قوله: (إنه لم تعرف سنة نسخت بالقرآن إلا ومعه سنة مبينة للنسخ، وأن القول بنسخ السنة بالقرآن دون سنة دالة على النسخ يفتح الباب ليترك بيان السنة، وردها باحتمال النسخ.

---

(١) صحيح أبي داود: (٣٨٤٨) صحيح.

(٢) الرسالة: (١٠٩ ـ ١١٠).

فيقال فيما حرم رسول الله ﷺ من البيوع: يحتمل أنه حرمها قبل نزول: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وفيمن رجم من الزناة: يحتمل أن يكون الرجم منسوخاً لقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]... إلخ.

فالقرآن ينسخ السنة مع وجود سنة مبينة للنسخ، وهذا هو الحق الموافق لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فالسنة هي المبينة للكتاب تفصيلاً، وتخصيصاً، ونسخاً.

رابعاً ـ أقسام النسخ (باعتبار الحكم):

قال الإمام السيوطي: «قال مكي: الناسخ أقسام:

١ ـ فرضٌ نسخ فرضاً:

ولا يجوز العمل بالأول، كنسخ حبس الزواني بالحد، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾، نسخ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ﴿١٥﴾﴾ [النساء: ١٥].

قلت: والصواب أن هذا من المؤجل بسبب، فرفع حكمه بوجود السبب وهو السبيل، وليس هذا من النسخ، بل هذا رفع لمشروعية الحكم الأول بأجله.

٢ ـ فرضٌ نسخ فرضاً مع جواز العمل بالأول:

مثل قوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾، نسخت بقوله: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ...﴾ [الأنفال: ٦٥].

فالمنسوخ في هذه الآية وجوب ثبات المسلم لعشرة من الكفار، ولو فعله لجاز.

٣ ـ ندبٌ نسخ فرضاً:

قال تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، نسخ قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل: ٢]، فنسخ الوجوب وبقي القيام مندوباً»[١].

خامساً ـ ما يظن أنه نسخ وليس بنسخ:

١ ـ قسمٌ ليس منسوخاً ولا مخصصاً:

مثل قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، قيل إنها منسوخة بآية الزكاة.

وليست كذلك، بل هي من الإنفاق على الأهل، والصدقة المندوبة، وهي باقية غير منسوخة.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٨]، قيل إنها منسوخة بآية السيف، وليس كذلك، لأنه سبحانه أحكم الحاكمين، وهذا مما لا يقبل النسخ، وهي تدل على التفويض، وترك المعاقبة.

وقوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، عده بعضهم من المنسوخ بآية السيف، وقد غلّطه ابن الحصار بأن الآية حكاية عما أخذه الله على بني إسرائيل، فهو خبر لا نسخ فيه[٢].

٢ ـ قسمٌ من المخصوص نُسب إلى النسخ:

مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر: ٢، ٣].

وقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ ... إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧]، وقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢١]، قل إنه نسخ بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥].

---

(١) الإتقان: (٢/٧٠٤ ـ ٧٠٥).

(٢) الإتقان: (٢/٧٠٦).

وغير ذلك من الآيات التي خُصَّت باستثناء أو غاية أو مخصص منفصل، فكل ذلك من المخصوص، لا من المنسوخ.

إلا أن يكون قد ثبت العمل بالعموم، قبل ورود المخصص المنفصل، فيكون نسخاً كنسخ حل لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر.

٣ ـ قسم فيه رفعٌ لشرع من قبلنا أو لعمل الجاهلية:

مما لم يشرَّع بقرآن أو سنة، مثل إبطال نكاح نساء الآباء بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢].

وحصر الطلاق في ثلاث في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٢٩ ـ ٢٣٠]، ومنه آية شرع القصاص وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، على قول أن شرع من قبلنا شرع لنا، ومنه تحريم الخمر بعد السكوت عن شربها سنوات بعد الوحي.

٤ ـ قسم المنسأ (المؤجل):

وهو ما أمر به لسبب، ثم يزول السبب، كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر والصفح، مثل قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩]، ثم نسخ بإيجاب القتال، في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وهذا في الحقيقة ليس نسخاً، بل هو من قسم المنسأ، كما قال تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ٢١٥]، في قراءة: ﴿**أو نَنْسَأْها**﴾ فالمنسأ هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، ويكون الحكم حال الضعف وجوب الصبر على الأذى، وبهذا يضعف ما يلهج به كثيرون من أن الآية في الصبر منسوخة بآية السيف، وليس كذلك، فكل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما، لعلة تقتضي ذلك الحكم، ثم ينتقل إلى حكم آخر بانتقال العلة، وليس هذا بنسخ، إنما النسخ الإزالة حتى لا يجوز امتثاله.

وقال مكي: «ذكر جماعة: أن ما ورد في الخطاب مشعر بالتوقيت

والغاية، مثل قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، محكم غير منسوخ، لأنه مؤجل بأجل، والمؤجل بأجل لا نسخ فيه»[1].

سادساً ـ ما يقع عليه النسخ، وما لا يقع:

١ ـ لا يقع النسخ على أخبار القرآن المحضة، بخلاف ما أفادت من معاني الأمر والنهي، فيقع النسخ على معنى الأمر أو النهي دون الخبر.

٢ ـ لا يقع على آيات الاعتقاد، وصفات الربوبية.

٣ ـ لا يقع على أمهات الفضائل كالأمانة، والبر، والإحسان، وأصول الدين.

٤ ـ يقع على الأحكام الشرعية، من حلال وحرام وفرائض وأمثال ذلك.

سابعاً ـ الناسخ والمنسوخ في كتاب الله[2]:

١ ـ من سورة البقرة:

أ ـ قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة: ١٨٠]، منسوخ بحديث: «**لا وصية لوارث**»[3]، ونسخها بآية المواريث غير ظاهر، لأن الجمع بين الآيتين ممكن، وهو يرفع التعارض، وليس الأمر كذلك بين الحديث والآية.

ب ـ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤] منسوخ بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فالأمر في الآية الثانية رافع لحكم التخيير بين الفدية والصيام في

---

(١) الإتقان: (٢/٧٠٣ ـ ٧٠٤).

(٢) اقتصرت فيه على ما صح نسخه مما أورده الإمام السيوطي في إتقانه.

(٣) انظر تخريجه: ص(٦٤).

الأولى، فهو نسخ ظاهر لأن الآية الثانية متأخرة عن الأولى.

ت ـ قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]، منسوخ بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، كما بينت السنة الصحيحة[١].

فقد كان الجماع محرماً رمضان كله أول الأمر، فجاز في ليلة الصيام كما في الآية الثانية.

ث ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

فالوصية منسوخة بالميراث، والسكنى ثابتة لها بحديث الفريعة بنت مالك، وقد ساقه الحافظ في بلوغ المرام، وفيه: «**امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله**»، قالت: فقضى به بعد ذلك عثمان[٢].

وذهب إليه جماعة من السلف والخلف، منهم الإمام أحمد، والشافعي، وأبو حنيفة[٣].

ج ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

منسوخ بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٢ ـ من سورة النساء:

ـ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء:

---

(١) انظر ص(٦٣).

(٢) والحديث صححه الترمذي والذهبي وابن حبان والحاكم.

(٣) انظر سبل السلام (١١٣٤/٣).

٣٣]، منسوخ بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقد ذكر أهل التفسير أن المسلمين كانوا يتوارثون بالأخوة التي عقدها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، ثم نسخة بالمواريث[١].

٣ ـ من سورة المائدة:

أ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢]، منسوخ بقوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وظاهر الآية يساعد على القول أن هذا من باب المقاصَّة، ومعاقبة المعتدي، وليس رفعاً لحرمة الشهر.

ب ـ قوله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢]، منسوخ بقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقد ذهب إليه ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدي، وزيد بن أسلم، وعطاء[٢].

٤ ـ سورة الأنفال:

ـ قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، منسوخ بقوله بعدها: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

٥ ـ من سورة براءة:

ـ قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، منسوخ بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٢].

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم: (٤٩٠/١).

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم (٦٠/٢).

٦ ـ من سورة الأحزاب:

ـ قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ٥٢﴾ [الأحزاب: ٥٢].

منسوخ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي﴾ [الأحزاب: ٥٠].

٧ ـ ومن سورة المجادلة:

ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ [المجادلة: ١٢].

منسوخ بقوله: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ [المجادلة: ١٣].

٨ ـ ومن سورة المزمل:

ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾ [المزمل: ١، ٢]، منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

المبحث الحادي عشر
قصص القرآن

ـ **التعريف**: القص: اتباع الأثر، قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]، وقال: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف: ٦٤]، والقصص: الأخبار، وقصص القرآن أخباره.

أولاً ـ موضوعات قصص القرآن:

١ ـ بدء الخليقة، وخلق آدم وإنزاله إلى الأرض، وبدء الصراع بين الخير والشر، ووقوع الشرك في أهل الأرض.

٢ ـ أحوال الناس قبل وقوع الشرك، وبدء إرسال الرسل إلى الأرض بعد وقوع الاختلاف، وأسباب الوقوع في الشرك.

٣ ـ أحوال وأخبار دعوة التوحيد التي جاء بها الرسل لأقوامهم، وبيان دعوة الرسل، وسيرهم مع أقوامهم، ومواقف الأمم السابقة من دعوة الرسل، وعواقب التكذيب والعناد، وعواقب الاستجابة لهذه الدعوة، وما لقيه الأنبياء والصالحون من ابتلاءات وشدائد، وما ترجموه من آيات الثبات والصبر في دعوتهم.

٤ ـ أخبار الجبابرة المتمردين على دين الله، وصور البطش والتنكيل الذي ساموا به الأمم والأقوام التي تسلطوا عليها، وآيات قدرة الله في إهلاك هؤلاء الظلمة، ونصر المظلومين من المؤمنين.

٥ ـ الحديث عن المنافقين ومكائدهم ومكرهم، والصور التي كانوا يظهرون بها، وأسباب كفرهم ونفاقهم، وعواقب تكذيبهم.

ثانياً ـ مكانة القصص القرآني:

قصص القرآن وحي رباني أنزله الله في كتابه نوراً وتبصرة، وكلام الله سبحانه منزه عن الباطل والوهم والكذب، فقصص القرآن تاريخ صادق، يترجم أحداثاً حقيقية، وأخباراً يقينية، لا يسع المسلم غير الإيمان به، وتصديقه تصديقاً جازماً، وخلاف ذلك نكسة عن الإيمان الصحيح، وزيغ عن تصديق كتاب الله وكلامه، وتكذيب له أي تكذيب.

وهو علم محكم لا يدخله النسخ، ولا ينسب إليه مجاز، ولا يفسر بالرموز، وليس ضرب أمثال لا واقع له، وذلك وأشباهه باطل ينزه عنه كتاب الله تبارك وتعالى، واعتقاده مفسد لعلوم الكتاب العزيز.

ثالثاً ـ أغراض القصص القرآني:

قال الله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠]، وقال عز شأنه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ . . .﴾ [يوسف: ٣]، وقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

١ ـ من أغراض القصص في القرآن الكريم؛ تثبيت قلوب المؤمنين: وشد عزائمهم، عندما تحيط بهم الشدائد، وتضعف النفوس، فيرى المؤمن في قصص من سبقه على هذا الطريق آيات قدرة الله، وعجائب صنيعه لعباده المخلصين، ويرى من ثبات الدعاة على هذا الطريق قدوة حية، ماثلة أمام بصيرته، لا تنزع ثقة بالله، وتوكلاً عليه، ويرى عواقب الثبات والصبر،

ظهوراً لدعوة الحق، ودخولاً في دين الله، وتعبيدَ الناس لربهم.

٢ ـ **الموعظة البليغة**: ومواعظ القصص القرآني تظهر في عرض دواعي الإعراض والتفريط في الحق، والاستكبار عن الخضوع له، وفي تصوير مظاهر هذا الاستكبار الفعلية والنفسية، وتأثر الضعفاء بسلوك المستكبرين، ثم في العرض الدقيق المؤثر لعواقب هذا الاستكبار، وجزاء التفريط، والإخلاد إلى أهواء النفس من عقوبة قاصمة ذريعة، بالريح، أو الطوفان، أو الرجز، أو الخسف، أو الصيحة، أو إغراء أسباب الفرقة والتطاحن بين المعرضين.

وتتجلّىٰ الموعظة في تمكين المستضعفين من الدعاة إلى الحق، حتى يعود وهنهم حزماً، وذلهم عزاً، وخوفهم أمناً، وقلتهم كثرة.

ثم في تعرض هؤلاء أو أبنائهم لفتن السراء الآسرة، بعد الضراء الدابرة، وحال من يوفق منهم للاعتصام بأسباب الشكر.

٣ ـ **تذكير الغافل**: وتبقى قصص القرآن من أقوى أسباب تذكير الغافل عن الحق، وتنبيه دواعي الإيمان في القلب، والخشوع في الجوارح، عندما يرى تالي القرآن كيف تترجم العقيدة في قلوب المؤمنين خضوعاً وحباً وخوفاً، وتتحول إلى واقع يتجلى في أعمالهم، حتى تكون لهم صبغة لا ينفكون عنها، ومنهجاً لا يسلكون غيره.

٤ ـ **التربية**: ويستطيع الدعاة الذين يعيشون مع قصص القرآن بعقولهم وقلوبهم أن يجعلوا منه مادة تربوية غنية، تمدهم بأسباب ترقيق القلوب، وإصلاح النفوس، والإغراء بالاستقامة على منهج الأنبياء والصالحين، وتهذيب الأخلاق، في الدروس، والخطب، والجلسات، وبواسطة الكتابة، والإذاعة، وغير ذلك، مادة لا تزيغ بها القلوب، ولا تملها النفوس، ولا تعود غير الهداية والسلام والوئام.

المبحث الثاني عشر
أمثال القرآن

التعريف: الأمثال جمع مَثَلٍ، والمَثَل شبه المعاني المعقولة.

والمِثلُ شبه المحسوس، وشبه الشيء هو المساوي له في بعض الصفات، لا كلها.

والمَثَلُ يأتي كذلك بمعنى الصفة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، أي: الصفة الحسنى، وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [محمد: ١٥]، أي: صفة الجنة.

والمَثَلُ: العبرة التي يقاس عليها، ويعتبر بها، فيتوصل بالسابق المعلوم منها إلى معرفة المستقبل المجهول، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: ٥٦].

والمثل قياس عقلي، فيه تشبيه خفي بجلي، ومجهول بمعلوم، وغائب بشاهد، قال الزمخشري: التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني، وإدناء المتوهم[1] من الشاهد، فإن كان المتمثل له عظيماً، كان المتمثل به مثله، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك[2].

---

(١) المتخيَّل.

(٢) وضرب النبي ﷺ مثل الدنيا بالبعوضة، وضرب القرآن مثل الشجرة الطيبة لكلمة التوحيد، ولعمل الكافر بالسراب، والرماد.

وأمثال القرآن العظيم هي أحسن الأمثال في مقاصدها، وتمثيلها، وموعظتها، وبيانها، وتربيتها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣].

أهمية الأمثال في القرآن:

قال السيوطي: قال الماوردي: من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال، وإغفالهم الممثلات، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام، والناقة بلا زمام[1].

وهو مبنى بلا معنى، ومظهر بلا مضمون، ووسيلة بلا غاية.

وما اشتمل من الأمثال على تفاوت في ثواب، أو إحباط عمل، أو مدح، أو ذم، أو نحو ذلك فإنه يدل على الأحكام[2].

أقسام الأمثال: وتقسم الأمثال باعتبار ظهورها إلى صريح، وضمني لا ذكر للمثل فيه.

فمن الأول قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: ١٧].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٨].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: (وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر) ثم ساق حديث البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت**

---

(١) الإتقان: (٢/١٠٤١).

(٢) الإتقان: (٢/١٠٤١).

الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان: لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به»[1].

أغراض الأمثال:

أ ـ وتقسيم الأمثال باعتبار فوائدها التمثيلية إلى أربعة أقسام:

١ ـ إخراج ما لا يقع عليه الحس، إلى ما يقع:

وهو يكون في تشبيه الأمور المعنوية بالمشاهدة، كتشبيه الشرك ببيت العنكبوت، وتشبيه عاقبة أعمال المشركين بالرماد الذي تأخذه الريح العاصفة.

٢ ـ إخراج ما لا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة، ومنه تشبيه المختلف فيه بالمتفق عليه، كتشبيه توحيد الألوهية، الذي نازع فيه المشركون، بتوحيد الربوبية الذي يقرون به ويعلمونه.

٣ ـ إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة، كإخراج بعث الناس من القبور وإحيائهم، إلى خلقهم أولاً من بطون أمهاتهم، وإحياء الأرض بعد يبسها.

٤ ـ إخراج ما لا قوة له من الصفة إلى ما له قوة.

ب ـ وتقسم باعتبار مؤداها البياني إلى قسمين:

١ ـ بيان الحال، مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧].

٢ ـ بيان الصفة، مثل قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وقوله: ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ﴾ [الفتح: ٢٩].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٢٢٢).

ت ـ وتقسم باعتبار مقاصدها التربوية والدعوية إلى أنواع كثيرة، أهمها: التذكير، والوعظ، الحث، الزجر، الترهيب، الترغيب، الاعتبار وهو أهمها، التنبيه إلى العواقب، التعليم، الجدل.

فأمثال القرآن من أنفع الوسائل الدعوية، التي تُقرِّب البعيد، وتوضح الغامض، وترقق القلوب، وتكسر الجمود، وتوصل إلى الأغراض بإذن الله.

من الآيات التي جرت مجرى المثل:

ـ ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم: ٥٨]: يُتمثَّلُ به في المعضلات الشديدة.

ـ ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]: يُتَمثَّلُ به عند ظهور الأمر الخفي، بعد طول خفائه.

ـ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]: ويضرب لمن جلب والوبال على نفسه.

ـ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]: ويضرب لمن ارتدت عليه عاقبة كيده بغيره.

ـ ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء: ٨٤]: يضرب لمن عمل عملاً سبقت له منه نظائر.

المبحث الثالث عشر
أقسام القرآن الكريم

أولاً ـ التعريف:

الأقسام جمع قَسَمَ، وهو اليمين، والحلف.

ويتكون القَسَمُ من: فعل القسم، وحرفه، والمقسم به، والمقسم عليه، أو جواب القسم.

ثانياً ـ فِعل القَسَمِ:

وقد يأتي فعل القسم محذوفاً في أقسام القرآن، استغناء بحرفه، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: ١، ٢]، وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: ١، ٢].

اللام: ويأتي في القرآن: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾، ويراد به: لا وأقسم، مثل قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ [القيامة: ١]، وقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ [الواقعة: ٧٥].

ويراد بالأول: تأكيد الإثبات، وبالثاني: تأكيد النفي.

ثالثاً ـ حروف القسم هي:

الباء: ويأتي مع فعل القسم، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾.

الواو: وتأتي مع الأسماء الظاهرة، مثل: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ١، ٢]، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ [الشمس: ١].

التاء: وتأتي مع لفظ الجلالة، مثل: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف: ٩٥]، ومثل: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥٧].

رابعاً ـ المقسم به:

لا يكون المقسم به إلا معظماً، وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن الكريم، مثل قوله: ﴿... قُلْ إِى وَرَبِّىٓ ...﴾ [يونس: ٥٣]، وقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، وفي سورة النساء، والحجر، ومريم، والتغابن، والمعارج.

وأقسم سبحانه ببعض مخلوقاته، كقسمه بنبيه محمد ﷺ في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢]، وأقسم بالليل والفجر، والأرض، والسماء، والقيامة، والنجم، وطور سينين، وغير ذلك.

قال الإمام ابن قيم الجوزية: (اعلم أنه سبحانه وتعالى يقسم بأمور على أمور، وإنما قسم بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنها من عظيم آياته).

والنهي عن الحلف بغير الله تكليف تعبد، والله سبحانه منزه عن التكليف، وأفعاله منزهة عن مشابهة أفعال المخلوقين في نقصهم وعجزهم وخضوعهم، فلله المثل الأعلى، والعبد مكلف بما شرع الله له، وأمره أو نهاه عنه، والله يفعل ما يشاء، ويقسم بما شاء.

والمقسم به لا يكون إلا ظاهراً معلوماً، لأن المراد بالقسم هو التأكيد، وكمال الحجة، وفصل الخطاب، ولهذا أقسم الله بالآيات الظاهرة الجلية، التي يعرفها الناس جميعاً، كالليل والنهار، ونحوهما مما سبق ذكر بعضه.

خامساً ـ المقسم عليه:

أقسم الله تعالى في القرآن على أمور منها:

١ ـ أصول الإيمان، كالإيمان بالقرآن، والبعث، والجزاء.

٢ ـ أقسم على توحيده وعبادته، مثل قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾ [الصافات: ١ ـ ٤].

٣ ـ أقسم على صدق رسالة نبيه محمد ﷺ، مثل قوله: ﴿يٰسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ [يس: ١ ـ ٣].

٤ ـ أقسم على مصير الإنسان: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ١، ٢].

٥ ـ وأقسم على صفات خلقه: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات: ١ ـ ٦]، وقد يحذف جواب القسم ـ المقسم عليه ـ إذا كان المقسم به دالاً عليه نحو ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [ص: ١]، حذف المقسم عليه، وهو أن القرآن حق.

سادساً ـ أنواع القسم:

القسم نوعان: ظاهر، ومضمر.

والظاهر ما سبقه أحد أحرف القسم، وقد مرت.

والمضمر نوعان: نوع دلت عليه اللام، كما في قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

ونوع دل عليه المعنى، نحو ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، تقديره: والله، أي: والله وإن منكم إلا واردها.

ومن مقاصد القسم غير ما مر: تعظيم الله تعالى لأمر المقسم عليه، وشدة تأكيده، لأن كلام الله تعالى صدق في نفسه، لا يحتمل غير ذلك، وإنما جرى القرآن في ذلك على أساليب العرب في التأكيد.

المبحث الرابع عشر
جدل القرآن

أولاً ـ التعريف:

الجَدَل: شدة الفتل، جدلت الشيء: أحكمت فتله.

والجدِل: الصرع، يقال: جَدَله جَدْلاً: صرعه على الجدالة، وهو مجدول.

والجدَل: القدرة على الخصومة، واللدد فيها، ويقال: رجلٌ جدِل: شديد الجدال.

والجدَل: مقابلة الحجة بالحجة.

والمجادلة: المناظرة والمخاصمة، وإحكام الحجة، ومغالبة الخصم، وفتل الخصم عن رأيه، ليرجع إلى قولك.

والمجادلة الممدوحة: هي المجادلة بالتي هي أحسن، للوصول إلى الحق، وتكون بالحجة الواضحة الصحيحة، للوصول إلى الحق، برفق ولين.

والجدل المذموم يكون بالمجادلة بالشبهات، أو الأغلوطات، أو للوصول إلى باطل، أو في طلب الحق بغلظة وكبر واستعلاء.

وجدل القرآن: مجادلته ومناظرته للمعاندين، والجاهلين المنكرين، والمنافقين والمعرضين لإظهار دعوته، وكشف باطلهم.

ثانياً ـ أغراض الجدل القرآني:

١ ـ تقرير صدق الرسالة الخاتمة وبيان أدلتها، وحاجة البشرية إليها، والتعريف بخصائصها، وفضائلها.

٢ ـ دعوة أهل الكتاب الأدلُ إلى الإسلام والاستسلام لرب محمد، وموسى، وعيسى، وبيان شبهاتهم، وردها، وتذكير بالمواثيق التي أخذت عليهم في الإيمان بجميع رسل الله.

٣ ـ تقرير حقيقة توحيد الألوهية، وأهميتها، وبيان أدلتها العقلية، والنقلية.

٤ ـ إثبات القيامة والبعث بعد الموت، الذي أخبرت به جميع الكتب السماوية، بأنواع الاستدلالات.

٥ ـ إثبات توحيد الأسماء والصفات، ووصف الله بصفات الربوبية والكمال والقدرة، ونفي التشبيه بين الخالق والمخلوق، ونفي أنواع التحريف والإلحاد في صفات الله تعالى.

٦ ـ بيان صفات النفاق، والمنافقين، والتنبيه إلى أساليبهم، وأخطارهم، وأمراضهم الداخلية، وتأصيل أسلوب التحصن من كيدهم، واجتناب نفاقهم، وشرهم.

٧ ـ وضع قواعد التحصين العقلي والنفسي من أساليب الشيطان، ووساوس النفس الإمارة، وطرق الإصلاح.

٨ ـ وضع ضوابط المجادلة العلمية الصحيحة، وأساليبها، والتمييز بين الأدلة السليمة، والشبهات، وأساليب الإغواء والتضليل النفسي.

٩ ـ التعريف بأساليب دعوة غير المسلمين، وحكمة دعوتهم، وموعظتهم، بعيداً عن الغلظة والمداهنة.

١٠ ـ ربط عقل المسلم بأصول المعرفة الإسلامية، من مصادر العلم، وأركان الإيمان التي تمثل قواعد للمعرفة والتفسير الإسلامي والتقييم.

ثالثاً ـ من قواعد الجدل القرآني:

أ ـ رد سلطان العلم إلى الله:

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن: ٢٦]، وقال سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٣، ٧٤]، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة: ٨٠] فلا يعلم أحد من أمر الغيب، ومن صفات الله، وأفعاله، وشرعه، وعهوده، إلا الله سبحانه وتعالى، ومن آتاه الله من علمه، فكل دعوى من هذا القبيل بغير برهان من الله فهي افتراء باطل مردود.

ب ـ رد سلطان الحكم والشرع إلى الله:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: ١٤٤، ١٤٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

فكل تحريم، أو إيجاب، أو تحليل من عند غير الله فهو باطل مفترى على الله، مردود على صاحبه.

ت ـ سد طرق العلم بالله إلا من طريق النبي ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣].

وهذه القاعدة من مقتضيات شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ، إذ هي تقتضي الرجوع إلى الرسول في تلقي الرسالة.

فلا سبيل للعباد لمعرفة الاعتقاد والشريعة، غير طريق التلقي عن الرسول، وما أنزل عليه من قرآن، وما أوحي إليه من سنة مفسرة مكملة للقرآن.

فالكتاب والسنة مبدأ العلم، ومصدره، ولا سبيل إليه من غير الوحي.

ث ـ أركان الإيمان هي أركان العلم ومبادؤه:

علمه من علمه من أئمة السنة والعلم، وجهله من جهله من أهل الكلام، والجهل، والبدع، والشبهات.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس: ٣٥].

فالقرآن أصل الهداية والعلم الصحيح، ومن اهتدى به فقد هدي، والإنسان لا يهتدي إلى الحق، ولا يعرفه، ولا يهدي إليه، إلا أن يهديه الله بهداه، فكل علم أو هداية عند بني الإنسان مرجعها إلى القرآن، وهدايته، وأنواره.

ج ـ وجوب فهم القرآن على معهود العرب الذين نزل فيهم:

فالقرآن إنما نزل إلى العرب الأميين، وبلسانهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ

أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقد نزل بلسان قريش، كما تقدم في مباحث جمع القرآن، ففهم القرآن إنما يكون على معهود العرب الذين نزل فيهم، ولا يكون بمصطلحات حادثة بعدهم، ومن قبل غيرهم.

وبهذا يتبين انحراف من يطلب معاني القرآن على مصطلحات الفلاسفة، أو متكلمي اليونان، أو من اتبع سننهم من متكلمي المسلمين، من معتزلة وأشاعرة وماتريدية وعقلانيين معاصرين ممن استهوته شياطين الحضارة الغربية، ومن مقلدين متعصبين يحملون ألفاظ القرآن على مصطلحات مذهبهم، وشيوخهم، وأحزابهم.

ح ـ أسلوب القرآن سهل ممتنع:

وطريقة القرآن تجمع بين يسر الفهم وسهولته، وامتناع معارضته، فهو يتسع لإدراك الأمي، والشيخ الكبير، والجارية، والشاب، ولا يملك أعقل العقلاء محاكاته في استدلاله، أو رد شيء من مقولاته، ومسائله.

انظر في ذلك: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٤]، أو: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد: ١٦]، أو: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨].

خ ـ أدلة القرآن نقلية عقلية:

قرر الإمام ابن القيم أن أدلة القرآن هي أدلة عقلية نقلية معاً، ذلك أن أدلة القرآن في باب المعاد، والإيمان، والنبوات، والصفات، نوعان:

الأول: دلالته العقلية ظاهرة ضرورة، لا يمترى فيها[1]، منها ما قدمت لك من أمثلة، ونظائرها كثيرة.

والثاني: نوعٌ لا تظهر دلالته العقلية، ولكن العقل الصريح لا يعارضه،

---

(١) انظر مختصر الصواعق المرسلة (١/٩٢ ـ ١٥٦).

بل يسلم له العقل، وأعظم وأوضح دليل على هذا أن الصحابة رضوان الله عليهم مع اختلافهم في أبواب العبادات والأحكام، لم يختلفوا في أبواب الصفات والتوحيد والمعاد والنبوات، ولم يدع أحد منهم أن في القرآن ما لا يقبله العقل، أو يتوقف في قبوله.

د ـ أن أدلة القرآن في أبواب التوحيد قاطعة:

وذلك خلافاً لدعوى المتكلمين على اختلاف مشاربهم، وقد أشبع أئمة السنة أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم هذه القضية في مصنفاتهم بحثاً.

ولولا ذاك لما كان القرآن فرقاناً، ولا شفاء، ولا هادياً، ويدل على قطعية أدلته في ذلك أن الصحابة لم يختلفوا في مسائل التوحيد، وقد اختلفوا في كثير من فروع العبادات والأحكام.

من أساليب الجدل في القرآن العظيم:

١ ـ بناء الدعوة إلى توحيد الألوهية، وهي ما يعارضه المشركون، على إقرارهم بتوحيد الربوبية، وذلك بأحسن بيان وأوضحه، كمثل قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم: ٢٨].

وقوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٩ ـ ٨٣].

٢ ـ إخراج المجهول الخفي عند المخاطب إلى الجلي المعلوم،

كقياس البعث على الخلق الأول، وإحياء الأرض بعد موتها، وأمثال ذلك.

وفي هذا إزالة الشكوك والشبهات، وتجلية حجج الحق، وإظهار أعلامه.

٣ ـ هدم القواعد الباطلة في الحكم والاحتجاج، مثل اتباع الآباء الضالين، واتخاذ الأحبار أرباباً باتباعهم في التحليل والتحريم، واتباع السحرة والكهان، والعمل بالظن.

٤ ـ هدم المبادئ والعقائد الباطلة، وبيان مفاسدها وأضرارها، وتقرير العقائد الصحيحة، وإقامة براهينها، وأدلتها.

مثل إبطال الشرك بأنواعه، والدعوة إلى توحيد الله، وتقرير البعث والحساب، والإنكار على غير المؤمنين بهما.

٥ ـ مطالبة أهل الباطل بإقامة البينات على دعواهم، أو بالتراجع عما هم عليه، كمثل قوله تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأنعام: ١٤٣]، وقوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [آل عمران: ٦٦]، وقوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨].

٦ ـ ذكر شبهات المخالفين، وكشف تشابهها بأدلة ساطعة لا تقبل الجدل، في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة: ٩١].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [آل عمران: ١٨٣].

٧ ـ مزج المجادلة بالترغيب والترهيب، وملامسة مواطن الرغبة والرهبة في نفس المخاطب، في مثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٤]، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ ... يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ...﴾ [الحج: ١ ـ ٥]، ونظائر ذلك لا تحصى كثرة في كتاب الله تعالى.

٨ ـ الاستدلال بقياس الأولى:

مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣].

فإعادة الخلق في ميزان البشر أهون من بدئه، فالخلق الثاني أهون من الأول، وخلق السماوات والأرض، وهو أشد من خلق الناس، يقرب إلى العقل البشري، إعادة الخلق مرة ثانية.

٩ ـ الاستدلال بقياس التمثيل:

كمثل قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحج: ٦]. فاستدل بإحياء الأرض الميتة الجرداء، على إحياء الإنسان بعد موته، بالعلة الجامعة، وهي الإحياء بعد الموت.

١٠ ـ الاستدلال باللازم على الملزوم:

قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥].

أي أنهما لم يكونا غير مخلوقين، لأن الحاجة إلى الطعام، من صفات المخلوقين، والخالق غني، لا يحتاج إلى شيء مما يحتاجه الخلق.

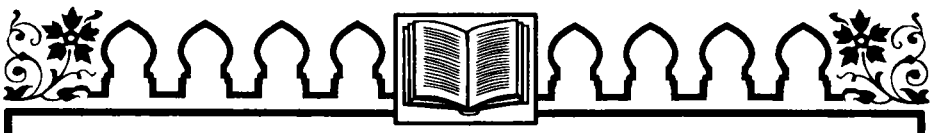

المبحث الخامس عشر
طرق التفسير، وقواعده

والمراد بيان مصادر وقواعد تفسير القرآن، وفق أهميتها وترتيبها، ويُرجع في معرفة طرق التفسير إلى ما دل عليه الوحي من قرآن أو سنة، وإلى طريقة الصحابة في ذلك.

أولاً ـ تفسير القرآن بالقرآن:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إن أصح الطرق في ذلك[1] أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِلَ في مكان فإنه قد فسِّر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر)[2].

وتفسير القرآن بالقرآن لا بد فيه من مراعاة النظر في تفسير السنة له، وتفسير الصحابة أهل البيان، فما كان من هذا النوع موافقاً لتفسير السنة، أو فهم سلف الأمة من أصحاب رسول الله، فهو الصواب الجدير بالاعتبار، والحق الحقيق بالاتباع، وما كان سوى ذلك، فهو اجتهاد خاطئ.

ذلك أن بيان السنة للقرآن وكذلك بيان الصحابة أصل ضروري لسلامة التفسير وصحته، والتفسير بعيداً عن هذين الأصلين من أسباب الانحراف والتحريف، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

---

(١) في التفسير.

(٢) مجموع الفتاوى: (١٣/١٩٥).

(فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول؛ وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر؛ لأجل مذهب اعتقدوه؛ وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان، صاروا مشاركين للمعتزلة، وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا، وفي الجملة: من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً، وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه[1]، فالمقصود بيان طرق العلم وأدلته، وطرق الصواب، ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسول الله ﷺ، فمن خالف قولهم، وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً)[2].

وقال الإمام الشاطبي رحمه الله: (وذلك أن السنة كما تَبيَّن: توضح المجمل، وتقيد المطلق، وتخصص العموم، فتخرج كثيراً من الصيغ القرآنية عن ظاهر مفهومها في اللغة، وعلم بذلك أن بيان السنة هو مراد الله تعالى من تلك الصيغ، فإذا طرحت واتبع ظاهر الصيغ بمجرد الهوى، صار صاحب هذا النظر ضالاً في نظره، جاهلاً بالكتاب، خابطاً في عمياء، لا يهتدي إلى الصواب فيها، إذ ليس للعقول من إدراك للمنافع والمضار في التصرفات الدنيوية إلا النزر اليسير، وهي[3]... الأخروية أبعد عن الجملة والتفصيل)[4]..

من أنواع تفسير القرآن بالقرآن:

١ ـ بيان المشترك:

وقد بين الشيخ العلامة محمد أمين الشنقيطي رحمه الله أن بيان القرآن

---

(١) إذا لم يتعمد المخالفة، ولم يرجع إلى أصل محدث كالمنطق، وعلم الكلام، فقد يكون معذوراً عند الله.

(٢) مجموع الفتاوى: (١٣/٣٦١ ـ ٣٦٢).

(٣) سلامة السياق تقتضي وجود حرف: في.

(٤) الموافقات: (٤/٢٠ ـ ٢١)، كذا في المطبوع، والظاهر أن ثمة حرفاً ناقصاً أرجح أن يكون: في.

للمشترك يشمل الاشتراك في الاسم والفعل والحرف، ومثال الاشتراك في الاسم قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، والعتيق يطلق وقد يراد به القديم، أو المعتق، أو الكريم، بيَّنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦].

ومثال الاشتراك في الفعل، قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾﴾ [التكوير: ١٧]، ففعل (عسعس) يطلق على إقبال الليل وإدباره، بينه قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر: ٣٣ ـ ٣٤]، ومثال الاشتراك في الحرف في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، فالواو في قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ تحتمل العطف على ما قبلها، والاستئناف، بيَّنه في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]﴾[1].

٢ ـ تعيين المبهم:

فما يرد في آية مُبهماً يرد مُعَيناً في آية غيرها، مثل قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، بيَّنه قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ [الزخرف: ١٧]، بيَّنه في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨].

٣ ـ بيان المجمل:

وقد يقع بيانه متصلاً، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فقوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ بيَّن المراد بالخيط الأبيض والخيط الأسود.

أو يقع منفصلاً كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ

---

(١) أضواء البيان: (١/٣١ ـ ٣٢) وقد أفاض الشيخ في بيان أنواع تفسير القرآن بالقرآن.

تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠] بعد قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾، فقد بين أن المراد هنا هو الطلاق الرجعي[١].

ثانياً ـ تفسير القرآن بالسنة النبوية:

قال الإمام الشافعي رحمه الله: (كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال ﷺ: «**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه...**»[٢].

وقال الإمام الشافعي أيضاً: (ومنها[٣]: ما أتى على غاية البيان في فرضه، وافترض طاعة رسوله، فبين رسول الله ﷺ عن الله كيف فَرْضُه، وعلى من فَرَضَهُ، ومتى يزول بعضه، ويثبت ويجب)[٤].

فالسنة إنما هي بيان للقرآن الكريم، فهي من أصول بيان القرآن ومصادره، إجمالاً وتفصيلاً.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فإن أعياك ذلك[٥] فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾)[٦].

وقال رحمه الله: (يجب أن يعلم أن النبي بيَّن لأصحابه معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، يتناول هذا وهذا...)[٧].

---

(١) انظر الإتقان: في مجمله ومبينه.
(٢) صحيح الجامع: (٢٦٤٣): صحيح.
(٣) أي وجوه البيان.
(٤) الرسالة: (٣٢).
(٥) أي لم تجد تفسير القرآن في القرآن.
(٦) مجموع الفتاوى: (١٣/١٩٥).
(٧) مجموع الفتاوى: (١٣/١٧٧).

وبيان السنة للقرآن هو تفسير للوحي بوحي، فهي الأصل الأصيل في هذا الباب، وكل طرق التفسير الأخرى فرع عليها.

فإذا عرف تفسير القرآن من جهة السنة كان الفيصل، ولم يحتج معه إلى نوع آخر.

ـ من أنواع تفسير القرآن بالسنة:

١ ـ النص على تفسير القرآن بالقرآن:

روى الشيخان عن ابن مسعود، قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، قلنا: يا رسول الله أيُّنا لم يظلم نفسه؟ قال: «**ليس كما تقولون: لم يلبسوا إيمانهم بظلم: بشرك، ألم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾** [لقمان: ١٣]..»[(١)].

وروى مسلم عن جابر يقول: (أخبرتني أم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة: «**لا يدخل النار**» ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشجرة أحد: «**الذين بايعوا تحتها**» قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فقال النبي ﷺ: «**قد قال عز وجل: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾**»[(٢)].

٢ ـ النص على تفسير القرآن بالسنة:

من ذلك ما رواه البخاري عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقول لأمته: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلّغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذلك قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...﴾**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، الفتح: (٤٤٨/٦).

(٢) مسلم كتاب فضائل الصحابة: النووي (٥٨/٦).

(٣) البخاري كتاب التفسير: الفتح: (٢١/٨).

ومنه ما رواه كذلك عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «**ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف، اقرؤا إن شئتم: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾**»[1].

٣ ـ بيان المشكل منه[2]:

أخرج البخاري عن عدي بن حاتم، قال: قلت: يا رسول الله ﷺ، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهما الخيطان؟ قال: «**إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين**»، ثم قال: «**بل هو سواد الليل وبياض النهار**»[3].

٤ ـ دلالة السنة على معنى الآية:

روى البخاري عن علي أن النبي ﷺ قال يوم الخندق: «**حبسونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس، ملأ الله قبورهم وبيوتهم** ـ أو: **أجوافهم** ـ **ناراً**»[4].

٥ ـ إيراد النبي ﷺ للآية في حال موافق لمعنى الآية:

روى البخاري عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ: قال وهو في قبة يوم بدر: «**اللهم إني أَنشدُك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم**». فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك ـ وهو يثب في الدرع ـ فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾»[5].

٦ ـ تأول النبي معنى الآية بفعله:

روى أبو داود وغيره عن جابر رضي الله عنه في صفة حجة النبي ﷺ قال: «**نظرت إلى مدِّ بصري من بين يديه من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله بين أظهرنا،**

---

(١) المصدر ذاته: (٨/٥٠).
(٢) وهذا النوع باعتبار ثمراته. لا باعتبار طريقته.
(٣) المصدر السابق: (٨/٣١).
(٤) المصدر السابق: (٨/٤٣).
(٥) المصدر السابق: (٨/٤٨٥ ـ ٤٨٦).

وعليه ينزل القرآن، وهو يعلم تأويله، فما عمل به من شيء عملنا به»[1].

ومنه ما روى البخاري عن أسامة في قصة مرور النبي على مجلس فيه عبدالله بن أُبي بن سلول، وإيذاؤه النبي ﷺ، وفيه: «وكان النبي ﷺ يتأول العفو، ما أمره الله به»[2].

يعني قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦]، فكان الصبر هو العفو.

وهذه الأنواع إنما هي طرق معرفة تفسير السنة للقرآن، تدل عليه، وتعرِّفه.

ومن أنواع تفسير السنة للقرآن (باعتبار ثمراته):

١ ـ تخصيص عامه:

فيكون لفظ القرآن عاماً، وتدل السنة على إخراج بعض أفراده من حكم سائر العموم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ . . .﴾ [البقرة: ١٧٣].

ودلّت السنة على أن ميتة السمك والجراد، والطحال والكبد، خارجات عن التحريم، وذلك فيما روى ابن عمر عن رسول الله ﷺ: **«أُحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان، فالحوت والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال»**[3].

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ . . .﴾ [النساء: ٢٤]، فهو دال بعمومه على جواز ما سوى ما ذكر

---

(١) صحيح سنن أبي داوود رقم: (١٦٧٦): صحيح.

(٢) البخاري كتاب التفسير: الفتح (٧٨/٨).

(٣) صحيح الجامع الصغير: (٢١٠): صحيح.

من المحرمات، ودلّت السنة على تحريم الجمع بين المرأة وعمتها، أو المرأة وخالتها، كما دل قول النبي ﷺ: «**لا يجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها**»[1].

٢ ـ تقييد المطلق:

فيرد الأمر في القرآن مطلقاً، فتدل السنة على تقييده بمقدار، أو حدٍّ، أو صفة.

كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨]، والآية فيها إطلاق في موضعين:

الأول: اسم السارق، ومن هو الذي يستحقه، ويستوجب القطع.

والثاني: موضع القطع الذي تقطع منه يده.

ودلّت السنة أن المراد بالسارق من سرق ربع دينار فصاعداً، كما في حديث عائشة مرفوعاً: «**اقطعوا في ربع الدينار، ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك**»[2].

وعلى أن القطع يكون من مفصل الرسغ، لما روى عبدالله بن عمر (أن النبي ﷺ قطع سارقاً من المفصل)[3].

٣ ـ تفصيل المجمل:

قد جاء القرآن بفرائض مجملة، كالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، وجاءت السنة بتفصيل ذلك، ببيان أعدادها، ومواقيتها، ومقاديرها، وهيآتها، وشروطها، وأركانها، وهذا كثير في السنة.

وأحاديث الأحكام جلُّها تفصيل لما أجمل في القرآن الكريم.

---

(١) صحيح الجامع الصغير: (٧٦٢١): صحيح.

(٢) صحيح الجامع الصغير (١١٨١): صحيح.

(٣) الإرواء: (٢٤٣٠). وقد قواه الشيخ ناصر لطرقه المتعددة.

٤ ـ بيان المبهم:

وذلك بأن يرد في القرآن ذكر لمعين من غير بيان اسمه، فتأتي السنة ببيانه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣].

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصة عن أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير، إني أجد منك ريح مغافير، قال: «**لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفت، لا تخبري أحداً بذلك**»[(١)]، فدلّ الحديث على أنها عائشة رضي الله عنها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ...﴾ [التحريم: ٣].

دلّت السنة في حديث عائشة السابق أنهما عائشة وحفصة رضي الله عنهما.

وقريب منه ما روى الترمذي عن ابن عباس: (أن يهوداً سألت رسول الله ﷺ عن البرق: ما هو؟ قال: «**ملك من الملائكة موكل بالسحاب، معه مخاريق من نار، يسوق بها السحاب حيث شاء الله...**»[(٢)].

٥ ـ النسخ:

ومنه نسخ آية خمس رضعات بالسنة المتواترة؟ ونسخ سورة الخلع والحفد بالسنة المتواترة.

ومنه نسخ بإباحة الحمر الأهلية المنصوص عليه بالحصر الصريح في الآية: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام: ١٤٥].

---

(١) البخاري: التفسير: الفتح: (٨/٥٢٤).

(٢) صحيح سنن الترمذي: (٢٤٩٢).

وذلك بالسنة الصحيحة الثابت تأخرها عنه، لأن الآية من سورة الأنعام وهي مكية، أي نازلة قبل الهجرة بلا خلاف، وتحريم الحمر الأهلية واقع بعد ذلك في خيبر[1].

٦ ـ بيان النسخ:

فيكون الحكم المنسوخ ثابتاً بالقرآن، وناسخه قرآن، ومن ذلك على قول نسخ وصية الوارث بآية المواريث، والحديث بيان للناسخ وهو قوله ﷺ: «**إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث**»[2].

والنوع الثاني أن يثبت الحكم بالسنة، وينسخ بالقرآن، والسنة تأتي بياناً للنسخ، ومنه التوجه في الصلاة إلى بيت المقدس كما كان الأمر في أول الإسلام، حتى نزل قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة: ١٤٤].

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (بينما الناس في الصبح بقباء جاءهم رجل فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وأمر أن يستقبل القبلة، فاستقبلوها، وكان وجه الناس إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة)[3].

٧ ـ تفصيل قصص القرآن:

مثل حديث الغلام المؤمن، في قصة أصحاب الأخدود، وما ورد في قصة موسى والخضر عليهما السلام، وأمثال ذلك.

---

(١) مذكرة أصول الفقه للشيخ محمد الأمين بن المختار الشنقيطي.

(٢) صحيح الجامع الصغير: (١٧٨٨): صحيح.

(٣) البخاري: التفسير: الفتح: (٢٣/٨).

تفسير القرآن بآثار الصحابة

حجية تفسير الصحابة:

الحق الذي عليه أهل السنة، أن أقوال الصحابة حجة لازمة في تفسير القرآن، كالشأن في أقوالهم في الأحكام.

فالصحابة تميزوا عن سائر الأجيال المسلمة بمدارك علمية، لا يشاركهم أحد فيها، من ذلك:

- أنهم تلقوا بيان القرآن من رسول الله ﷺ مباشرة.
- شهود التنزيل، ومعرفة أسبابه.
- ما دلّت عليه النصوص الواردة بوجوب اتباعهم، ولزوم هديهم[1].

وهم رضوان الله عليهم تميزوا عن غيرهم في المدارك التي شاركوهم فيها، ومن ذلك:

- معرفة مقاصد الشريعة، فكل من عرفها فمنهم أخذ ذلك، وبهم عرفه.
- عربيتهم الطبعية التي لم تتوفر لجيل، كما توفرت فيهم.

---

(١) انظر كتاب إعلام الموقعين للإمام ابن قيم الجوزية: فصل جواز الإفتاء بالآثار السلفية، ورسالة «البينات السلفية».

- استغناؤهم عن كثير من علوم الآلة، كالإسناد، والجرح والتعديل، والنحو، والبلاغة، ومصطلح الحديث، وعلم الخلاف.

طرق التفسير ومصادره عند الصحابة:

١ - تفسير القرآن بالقرآن:

روى البخاري عن ابن أبي مليكة، يقول: (قال ابن عباس: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ [يوسف: ١١٠] خفيفة، ذهب بها هناك وتلا ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وقد استيأس الرسل من إيمان أقوامهم، واستجابتهم، واستيأس الأتباع من نصر الله، وقد استدل ابن عباس بالآية التي في البقرة على تفسير آية يوسف، ومنه ما روى البخاري عن مجاهد أنه سأل ابن عباس: أفي ص سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ثم قال: هو منهم).

وداود ممن أُمِر النبي أن يقتدي بهم، فسجد داود، فسجد نبينا محمد ﷺ، وسجد ابن عباس[١].

والشاهد هو تفسير ابن عباس آية سورة ص: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ بآية الأنعام.

٢ - تفسير القرآن بالسنة:

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول:** ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]»[٢].

---

(١) البخاري: التفسير: الفتح: (١٤٤/٨ - ١٤٥).

(٢) البخاري: التفسير: الفتح (٣٧٢/٨).

فالفطرة هي الإسلام، وتبديلها يكون باليهودية، أو النصرانية، أو المجوسية.

ومنه ما روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: (كان النبي ﷺ يصلي على راحلته تطوعاً حيثما توجهت به، وهو جاء من مكة إلى المدينة، ثم قرأ ابن عمر هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾، وقال ابن عمر: في هذا أنزلت الآية)[1].

وهذا تفسير بالسنة الفعلية.

٣ ـ التفسير الذي له حكم المرفوع دون تصريح برفع:

وهو أن يفسر الصحابي الآية بلفظه، فيما ليس فيه مجال اجتهاد، دون أن يصرح برفع التفسير إلى النبي ﷺ، ومنه ما روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]، قال: «**رأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق**».

قال الحافظ: رأى جبريل على رفرف أخضر، أي في حُلة من رفرف، وهو الديباج الرقيق الحسن الصنعة[2].

٤ ـ التفسير باللغة:

من ذلك تفسير ابن عباس قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المرسلات: ٣٢ ـ ٣٣]، قال: (كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك، فنرفعه للشتاء، فنسميه القصر).

كأنه جمالة صفر: حبال السفن: تجمع حتى تكون كأوساط الرجال[3].

٥ ـ التفسير بما ورد عن أهل الكتاب:

ومنه ما هو صريح في النسبة إليهم، كما أخرج البخاري، في قوله

---

(١) صحيح سنن الترمذي: (٢٣٥٨): صحيح. وعزاه لمسلم.

(٢) البخاري: الفتح: (٤٧٧/٨).

(٣) الفتح: (٥٥٦/٨)، الحديث: (٤٩٣٢ ـ ٤٩٣٣).

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥]، عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت: (أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة)، قال: (أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾﴾ وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويُفتح بها أعينٌ عميٌ، وآذان صمٌ، وقلوبٌ غُلفٌ)[1].

ومنه ما هو غير صريح، كقول ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۚ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۗ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٦].

(لما دعى موسى قال الله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۚ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ قال: فدخلوا التيه، فكل من دخله ممن جاوز العشرين سنة مات في التيه، قال: فمات موسى في التيه، ومات هارون قبله، قال: فلبثوا في تيههم أربعين سنة، فناهض يوشع بمن بقي معه مدينة الجبارين، فافتتح يوشع المدينة)[2].

٦ ـ التفسير بالاجتهاد:

بأن يجتهد الصحابي رأيه في تفسير الآية، ومنه ما روى البخاري عن ابن عباس أن عمر سألهم عن قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قالوا: فتح المدائن والقصور، قال: (ما تقول يا ابن عباس؟) قال: (أجلٌ، أو مثلٌ ضرب لمحمد ﷺ، نُعيت له نفسه)[3].

وهذه مآخذ الصحابة رضي الله عنهم في تفسير القرآن.

---

(١) الفتح: (٤٠٢/٤).

(٢) تفسير ابن جرير (١٨٣/٤).

(٣) البخاري: الفتح (٦٠٩/٨).

وأما فوائد ودلالات تفسيرهم للقرآن فمنها:

١ ـ تخصيص العموم:

روى الإمام البخاري أن مروان قال لبوَّابه: اذهب إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحبَّ أن يحمد بما لم يعمل معذباً، لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس: (ما لكم ولهذه؟ إنما دعى النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء، فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم) ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾[1].

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

وروى الإمام ابن جرير في تأويل الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (هو بالخيار في هؤلاء الثلاثة، الأول فالأول، فإن لم يجد من ذلك شيئاً فصيام ثلاثة أيام متتابعات[2])[3].

٢ ـ بيان المبهم:

أخرج الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال:

(أردت أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، فمكثت سنة، فلم أجد له موضعاً[4] حتى خرجت معه حاجاً، فلما كنا

---

(١) المصدر السابق: (٨/٨١).

(٢) وهذا موافق لقراءة أصحاب عبدالله بن مسعود، إذ كان رضي الله عنه يقرأ: **﴿فصيام ثلاثة أيام متتابعات﴾**.

(٣) جامع البيان (٥/٣١).

(٤) لم يجد للسؤال مناسبة.

بظهران ذهب عمر لحاجته، فقال: أدركني بالوضوء، فأدركته بالإداوة، فجعلت أسكب عليه، ورأيت موضعاً فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتين اللتان تظاهرتا؟ قال ابن عباس: فما أتممت كلامي حتى قال: عائشة وحفصة)[1].

٣ ـ بيان النسخ:

روى الإمام البخاري عن يزيد مولى سلمة بن الأكوع عن سلمة رضي الله عنه قال: لما نزلت (﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان من أراد أن يفطر ويفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها)[2].

٤ ـ بيان أسباب النزول:

وهذا أمر سبق الكلام عليه في مبحث أسباب النزول من هذه المباحث فيرجع إليه في ذلك.

تفسير القرآن بأقوال التابعين:

والمراد بالتابعين من لقي الصحابة، أو بعضهم، ولم يعرف بخارجية، أو رافضية، أو جهمية، أو إرجاء، أو شيء من تلك الأهواء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (إذا لم تجد التفسير في القرآن، ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين)[3].

أئمة التابعين في التفسير:

ومنهم مجاهد بن جبر، قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاثة عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها.

---

(١) البخاري: الفتح (٨/٥٢٧).

(٢) المصدر السابق: (٨/٢٩).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٣/١٩٨) وتفسير ابن كثير (١/٤ ـ ٥).

وقال قتادة: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً.

وقال ابن أبي مليكة: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه، فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله.

ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به.

ومنهم سعيد بن جبير، وعِكْرِمَة: مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيَّب، وأبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم.

وقال: (فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها...)[1]، ولا شك أن المعاني التي يجب تنزيل القرآن عليها، هي المعاني التي عرفها العرب الذين نزل فيهم القرآن، وخوطبوا به، دون المعاني المحدثة بعدهم، أو المخالفة لمفهومهم.

وتفسير القرآن باللغة يأتي إذا لم يوجد تفسير له في القرآن، أو السنة، أو كلام الصحابة، أو كلام التابعين، وما لم يخالف شيئاً من هذه المصادر[2].

ـ **تفسير القرآن بقواعد التفسير**: وهو من أقوى الطرق بعد تفسير الصحابة، والمراد به تفسير آيات القرآن بالقواعد والأصول الثابتة عند أهل السنة، ابتداء من عصر الصحابة ثم من جاء بعدهم.

وهو من التفسير الاجتهادي الذي يجوز فيه تعدد الأقوال، ويسوغ فيه الخلاف بين العلماء.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) استقدمت الكثير من تفصيل هذا البحث وشواهده من كتاب: قواعد التفسير لمؤلفه: خالد بن عثمان السبت. جزاه الله خيراً.

حجيته: تؤخذ حجية هذا التفسير من حجيه القواعد والأصول التي يرجع إليها.

مكانته: يعتبر التفسير بالقواعد الأصولية بعد حجية تفسير الصحابة، لأن تفسير الصحابة للقرآن يدخل في التفسير بالمأثور، وأقوال الصحابة في التفسير لا يسع الخروج عنها عند أهل السنة.

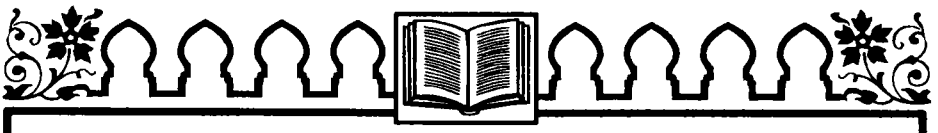

المبحث السادس عشر
مناهج التفسير

والمراد بمنهج التفسير: القواعد والطرق التي يرجع إليها المفسر في تفسيره، ومعها المبادئ التي ينطلق منها، أو يحرص على الانتصار لها، والاستدلال لا ثبات صحتها، والرد على مخالفيها، فأصول الفرق ومقالاتها لها أبلغ الأثر في تفسيرها للقرآن.

وقد تنوعت مناهج التفسير عند المفسرين المسلمين على مدى التاريخ الإسلامي، وتأثر جلُّها بحدوث الفرق، ومقالاتها، وردودها، ومواقفها.

ويمكن القول أن لكل فرقة من الفرق منهجها الذي يميزها عن غيرها، والذي يختلف عن بقية المناهج، تبعاً لمعتقداتها، وأصولها العلمية والعملية.

ولذا كان لا بد لدارس التفسير من الإطلاع على أهم مناهج التفسير القديمة والجديدة، وأن يتعرّف على أصولها، وقواعدها، ومعتقداتها.

أولاً ـ منهج السلف، أو أهل السنة في التفسير:

يتضمن المنهج السلفي في التفسير أصلين كليين، الأصل الأول: وهو يجمع أمهات المسائل التي تميّز بها المنهج السلفي، ودلّت عليها كلمات القرآن والسنة وقواطعهما، من أمور الاعتقاد والإيمان، ومسائل الولاء والعمل والعبادة، والإمامة، والاتباع، وأهم هذه المسائل:

١ ـ بيان حقيقة التوحيد، وشروطه، ولوازمه، والتعريف بالعبادة، وأنواعها، وشروطها.

والتحذير من الشرك، والكفر، والنفاق، وبيان ذرائعها، ودرجاتها، وأحكامها.

وتقرير توحيد الأسماء والصفات، والتنبيه على خطورته ومكانته، وتقرير قواعده وأصوله، والاستدلال لإثبات كل ما أثبته القرآن والسنة من الأسماء والصفات على حقيقتها اللائقة بالله، دونما تحريف، أو عطيل، ولا تشبيه ولا تكييف، والتفريق بين تفويض السلف لحقيقة وكيفية الصفات، وتفويض الخلف البدعي لمعاني الأسماء والصفات.

٢ ـ الإيمان بمعجزات النبي ﷺ: كإعجاز القرآن، وانشقاق القمر، وحنين الجذع، وتكثير الماء والطعام بدعائه، وغير ذلك مما نقله الرواة الثقات.

٣ ـ إثبات الكرامة لولي، بضوابطها الشرعية، دون غلو، ولا جفاء في تعريف حقيقة الولاية وصفاتها.

٤ ـ الإيمان بالقدر، وإثباته، على عمومه في جميع المخلوقات، وإثبات خلق الأعمال، والنيات، والهدى والضلالة، والرد على الجهمية في إنكاره.

٥ ـ الإيمان بمشيئة الله المطلقة، وإثبات الفعل للعبد، وإثبات المشيئة التابعة لمشيئة الله تعالى، وإبطال الجبر.

٦ ـ الإيمان بالبعث بعد الموت، وأن الله يبعث هذه الأجساد بعد الموت، والإيمان بعذاب القبر، والحوض، والميزان، والصراط، وإثبات الشفاعة بإذن الله، وأن الله يدخل أقواماً النار من أهل التوحيد، ثم يخرجهم منها، والإيمان بأشراط الساعة، وخروج المهدي، وخروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الدابة، إلى غير ذلك.

٧ ـ اعتقاد فضل الصحابة جميعاً، ووجوب موالاتهم، وحبهم، والاقتداء بهم، والسكوت عما شجر بينهم، وحمل ما جرى بينهم على الاجتهاد.

٨ ـ السمع والطاعة لولي الأمر، ووجوب طاعته ومناصحته، وإعانته على الحق، وأمره بالمعروف، وحرمة منابذته أو شق طاعته، ما لم تروا كفراً بواحاً.

٩ ـ لزوم جماعة مجتهدي أهل السنة، وحبهم وموالاة أهل الفضل والخير من المسلمين، ومناصحة المسلمين.

١٠ ـ ترك البدع، وإنكارها، والأخذ على أيدي أهلها، وترك الشذوذ والفرقة، والبعد عن الأهواء، والمقالات المحدثة.

الأصل الثاني ـ ويشتمل على قواعد الفهم والتفسير التي يسلكها أهل السنة في فهم القرآن، وتقرير مسائل الدين، وأهمها:

١ ـ التقيد بالسنة في تفسير القرآن: فالسنة هي الأصل المعصوم، الذي أنزله الله لبيان القرآن قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، والله تعالى أنزل الكتاب، وبعث معه الرسول مبيناً له، ولم يترك ذلك للرأي، ولا لغيره.

فالسنة هي المصدر الأول حكماً في تفسير القرآن، وهي الميزان العدل في التفسير، كما في غيره، فلا بد من الصدور عنها في ذلك، والتقيد ببيانها في كل حال.

فكل تفسير أو بيان لا يوافق السنة، ولا تشهد له، فهو لغو باطل.

وكل قول لا بد من عرضه على السنة قبل تقريره واتباعه.

٢ ـ ومن ذلك أن بيان السنة مقدم على ما يبدو من ظواهر الآي، ومفصل له، ومحكم لإجماله وعمومه وإطلاقه، وهذا ما قرره أئمة السنة، كالإمام الشافعي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، والشاطبي، وغيرهم.

٣ ـ أن بيان السنة للقرآن حجة على أقوال العلماء، والمذاهب، والآراء، فلا يحل تقديم تفسير عالم، أو إمام، أو مذهب، أو تقرير عقل، على تفسير السنة، وعلى بيانها، ولا يحل نصب الخلاف بين بيان السنة وقول قائل، أو محاولة توفيق في شيء من ذلك.

٤ ـ التقيد بفهم السلف للنصوص: فإذا صح للصحابة قول أو أقوال في تفسير آية، وجب الوقوف معه، وحرم القول بغيره مما يخالفه، وهذا هو لب منهج أهل السنة، وعمود بنائه، وقطب رحاه، فإن الصحابة تلقوا فهم القرآن من رسول الله ﷺ كما تلقوا ألفاظه، ومن ذلك:

٥ ـ تقييد الإطلاق بقول الصحابة.

٦ ـ تخصيص العموم بقول الصحابة.

٧ ـ تقديم قول الصحابي الواحد على القياس، وإن لم يعلم انتشاره، فإن علم انتشاره كان هو الإجماع.

٨ ـ تقديم تفسير الصحابي على تفسير العلماء المخالفين له.

٩ ـ مراعاة معهود العرب في الفهم والخطاب زمن نزول النصوص، وتفسيرها على فهمهم، واصطلاحهم.

١٠ ـ الوقوف عند ظواهر النصوص، مع اعتبار القرائن الواردة معها، متصلة أو منفصلة، إذا صح نقلها، وعدم العدول عن الظاهر إلا لصارف صحيح.

١١ ـ تفسير النصوص على الحقيقة دون المجاز.

١٢ ـ العمل على الجمع بين النصوص، والتوفيق بين معانيها ما أمكن ذلك قبل الترجيح.

١٣ ـ العبرة بعموم اللفظ، لا خصوص السبب.

١٤ ـ أخذ السبب المخصص بالاعتبار.

١٥ ـ مراعاة أسباب النزول في التفسير.

١٦ ـ مراعاة قرائن التركيب، والسياق، ودلالة الألفاظ.

١٧ ـ مراعاة مقاصد المتكلم بالقرآن.

١٨ ـ مراعاة القواعد اللغوية والأصولية الصحيحة.

١٩ ـ عدم اعتبار الأصول المحدثة، كالكلام والفلسفة والمجاز والتأويل الخَلَفِي، وقواعد المذهبية المخالفة للأدلة الصحيحة، وقواعد التفسير العقلاني.

٢٠ ـ عدم مراعاة المقالات البدعية المخالفة لمنهج أهل السنة، كمقالات الخوارج في التكفير، ومقالات الباطنية والصوفية، وغيرها.

٢١ ـ الاقتصار على ما يثمر العلم أو العمل، دون سواه، مثل نوع جلد نعلي موسى، والشجرة التي أخذ عصاه منها، واسم كلب أصحاب الكهف... إلخ.

٢٢ ـ النظر في وجوه الأشباه والنظائر عند تفسير الألفاظ المجملة.

٢٣ ـ مراعاة أصول منهج السلف الاعتقادية والعلمية والعملية، وعدم الخروج عن مقتضياتها.

أئمة التفسير عند أهل السنة:

١ ـ إمام المفسرين وقدوتهم عند أهل السنة، هو النبي ﷺ المعلم المبلِّغ عن ربه، وكل مفسر بعده فإليه يرجع، وقوله يلزم، وهم أسعد الطوائف بلزوم هديه وبيانه وتفسيره، فعلاً وعلماً وقولاً.

وهو ﷺ لم يترك آية أو كلمة أو معنى من القرآن يحتاج الناس إلى بيانه إلا وبيَّنه ﷺ، حتى ترك الناس على المحجة البيضاء الساطعة، فأعلم الناس بالتفسير، أعلمهم بأقواله وبيانه ﷺ.

٢ ـ وأعلم الناس بالتفسير بعده هم خلفاؤه الأربعة، وإن كانت الرواية عنهم فيه قليلة، وأشهر من يروى عنه التفسير من الصحابة: عبدالله بن عباس، وعبدالله بن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبدالله بن الزبير[١].

٣ ـ ومن التابعين: وأعلمهم في ذلك أصحاب ابن عباس، وهم أهل مكة، كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير.

وأصحاب ابن مسعود من أهل الكوفة، وعلماء المدينة مثل زيد بن أسلم، وابنه عبدالرحمن بن زيد، الذي أخذه عن أبيه، ومالك بن أنس.

ومنهم الحسن البصري، وعطاء بن أبي سلمة الخراساني، ومحمد بن كعب القرظي، وأبو العالية، والضحاك بن مزاحم، وعطية العوفي، وقتادة[٢].

٤ ـ طبقة أصحاب المصنفات:

قال السيوطي: ثم أُلِّفت بعد هذه الطبقة تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين، كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، ويزيد بن هارون، وعبدالرزاق، وآدم بن أبي إياس، وإسحاق بن راهويه، وروح بن عبادة، وعبد بن حُميد، وسنيد، وأبي بكر بن أبي شيبة.

وبعدهم جاء ابن جرير الطبري، وكتابه أجل التفاسير، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، ولوجوه الإعراب والاستنباط.

وأما تفسير ابن أبي حاتم، وابن ماجه، والحاكم، وابن مردويه، وأبي الشيخ بن حبان، وابن المنذر، فهي تسند إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم، ليس فيه غير ذلك[٣]، على قول الإمام السيوطي.

---

(١) الإتقان: (٢/١٢٢٧).

(٢) الإتقان: (٢/١٢٣٥).

(٣) المصدر السابق: (٢/١٢٢٧).

٥ ـ ومن أئمة التفسير:

الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، فله مباحث في رسالته تعد من أقدم ما كتب في أصول طرق البيان والتفسير، وأقوال في آيات الأحكام، جمعها الإمام البيهقي، والإمام البخاري له كتاب في التفسير من صحيحه، والإمام أبو الحسن علي بن محمد الماوردي البصري، والإمام أبو بكر بن العربي المالكي، وشيخ الإسلام ابن تيمية له مجلدات في التفسير، وكلامه في مقدمة التفسير من أقوى ما كتب في أصول التفسير، وكذلك تلميذه الإمام ابن القيم، له كتاب بدائع الفوائد جمع الكثير من الأقوال في التفسير، وأقوال جمعت في مجلد باسم التفسير القيم، وكذلك الإمام الحافظ ابن كثير له تفسير (القرآن العظيم)، من أحسن كتب التفسير السلفي.

والإمام محمد بن علي الشوكاني، والشيخ العلامة جمال الدين القاسمي الدمشقي والشيخ عبدالقادر بدران الرومي، والشيخ الإمام محمد الأمين بن المختار الشنقيطي، والشيخ عبدالرحمن السعدي.

ومن الكتب المفيدة في التفسير: «مفردات الراغب» الأصفهاني، في غريب القرآن، وزبدة التفسير، وهو مختصر تفسير الإمام الشوكاني المسمى «فتح القدير»، اختصره الدكتور محمد سليمان عبدالله الأشقر، و«تيسير العلي الكبير»، وهو اختصار سلفي لتفسير ابن كثير، كتبه الشيخ محمد نسيب الرفاعي رحمه الله تعالى، وتفسير الشيخ عبدالرحمن ناصر السعدي رحمه الله.

ثانياً ـ منهج الشيعة:

ولا أريد شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأنصاره، فهؤلاء هم أهل السنة عند التحقيق، وإنما أعني الإمامية الإثني عشرية، الذين يتبرؤون من الصحابة ويبغضونهم ويكفرونهم، ويقولون بتحريف القرآن، والعصمة للأئمة، ويجعلون الوصية وإمامة علي رضي الله عنه من أعظم أركان الإيمان.

١ ـ أصول منهج الشيعة:

أ ـ ولاية الأئمة: والقول بولاية علي والأئمة من بعده ركن من أركان الإيمان عند الشيعة، من لم يعرف الإمام لم يعبد الله[١]، وعلى منزلة الإمامة عندهم تقوم أصول دينهم.

ب ـ العصمة: وهم يقولون إن أئمتهم معصومون من الرذائل والفواحش، والخطأ والسهو والنسيان، ظاهراً وباطناً[٢].

ولذا يرون وجوب طاعة الإمام، وأن طاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصية الله.

ت ـ البداء: فيرون أن الله تعالى قد يظهر شيئاً على لسان نبيه أو وليِّه، لمصلحة تقتضي الإظهار، ثم يمحوه، فيكون غير ما أظهر، مع سبق علمه بذلك[٣].

ومن ذلك قولهم أن الله جعل الإمامة في إسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق، ثم مات إسماعيل في حياة والده، فبدا لله فيه، وجعل الإمامة في موسى بن جعفر بن محمد، ويزعمون أن النسخ نوع من البداء، كما يتذرعون بأن الله أمر إبراهيم بذبح ولده، ونسخ الأمر قبل تنفيذه.

ث ـ الرجعة: وهي اعتقادهم أن الله يعيد قوماً، من الأموات إلى الدنيا، قبل يوم القيامة، فيعيد الأئمة الذين سُلبوا حقهم ـ زعموا الإمامة ـ ويعيد من ظلمهم حقهم، حتى ينصرهم عليهم، ويأخذ لهم منهم حقوقهم[٤].

ج ـ البراء: والمراد به البراءة من أئمة الهدى أصحاب رسول الله ﷺ،

---

(١) الشيعة والسنة إحسان إلهي ظهير (٨٣ ـ ٨٩).

(٢) عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر (٧٠) نقلاً عن اتجاهات التفسير للدكتور فهد عبدالرحمن الرومي.

(٣) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر (١/١٩٠).

(٤) المصدر السابق: (١٩٠ ـ ١٩١).

وتكفيرهم ولعنهم عياذاً بالله، فهم لا يرون صحة الولاية إلا بهذا اللعن والتكفير لصفوة الخلق بعد الأنبياء، وهم يكفرون جميع الصحابة رضوان الله عليهم، باستثناء نفر قليل منهم[1].

ح ـ التقية: ويريدون بها كتمان الحق وستر الاعتقاد فيه، وترك إظهار مخالفة مخالفيهم بما يعقب ضرراً في الدين والدنيا[2].

خ ـ التحريف: وهو قولهم أن القرآن قد وقع فيه التحريف، فزيد فيه، ونقص منه، وأن الصحابة ـ أعاذهم الله ـ فعلوا ذلك جحوداً لحق علي رضي الله عنه في الخلافة، فأزالوا الآيات التي تنص على ذلك، والآيات التي تكشف فضائحهم[3]، ومن ذلك قولهم بالغيبة للمهدي، والخمس للأئمة، ونكاح المتعة، والمعاصرون منهم ينكرون بعض ذلك تقية.

وما ذكرته إنما هو أهم الأصول التي خالف الشيعة فيها السنة والإسلام، والشيعة الإمامية تجري في أبواب الصفات، والقدر، والمشيئة، على منوال المعتزلة.

٢ ـ طرق التفسير وقواعده عند الشيعة:

أ ـ تفسير القرآن بالقرآن.

ب ـ تفسيره بأقوال النبي ﷺ.

ت ـ تفسيره بأقوال الأئمة الإثني عشر المعصومين.

ث ـ تفسيره بالإجماع شرط أن يتضمن رأي الإمام المعصوم، أو أن يكون معتمداً على دليل معتبر عندهم.

ج ـ تفسيره بالعقل:

وما يبدو من هذه الطرق ظاهره السلامة وموافقة أهل السنة، فليست حقيقته كظاهره وتفسير ذلك:

---

(١) الشيعة والسنة: (٢٧ ـ ٤٢).

(٢) في الحاشية رقم (١).

(٣) الشيعة والسنة: (٦٥ ـ ١٢٣).

أ ـ أن الشيعة يفسرون القرآن على أن له ظاهراً وباطناً، وللباطن باطناً، وبذلك يلغون كل قواعد التفسير وأصوله، ومن ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، قالوا: هي ولاية علي بن أبي طالب، وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾، قالوا: اتصل بحر النبوة ببحر الإمامة في فاطمة وعلي، رضي الله عنهما[2].

كما أنهم يحصرون الراسخين الذين يعلمون تأويل القرآن في الأئمة المعصومين[3].

ب ـ وأما تفسيره بالسنة النبوية فقد هدموه من أساسه بردهم أحاديث أئمة الفضل والرضوان من الصحابة، إذ هم لا يقبلون إلا ما رواه أئمة أهل البيت. بل على التحقيق لا يقبلون إلا ما جاء عن طريق رواتهم من المتشيعين عن أهل البيت، وإلا فكتب السنة زاخرة بأحاديث أهل البيت مثل علي والحسن وغيرهما، مما لا يأبه له الشيعة.

ت ـ وأما تفسيره بأقوال الأئمة ففيه فساد من جهتين: الأولى: حصر التفسير بأقوال الأئمة الإثني عشر، وفي السلف أئمة في التفسير منهم من يفوق الإثني عشر علماً، وهذا جور وفساد، والجهة الثانية أن أكثر اعتمادهم على الموضوعات والواهيات من الآثار المنسوبة إلى الأئمة.

ث ـ وأما الإجماع عندهم فمرجع الاحتجاج به لديهم إلى قول الإمام المعصوم، والعصمة لا تثبت في الحقيقة لبشر بعد رسول الله ﷺ. فلا فائدة من دعوى الاحتجاج بالإجماع، ما دام يرجع إلى قول إمام واحد.

ج ـ وأما العقل فليس له زمام يؤخذ به أو يضبط، وليس أصلاً قائماً على دليل ثابت، والإحالة على العقل إحالة على تقديرات وظنون متضاربة متنافية، لا يتفق فيها على حد منضبط أو ثابت.

---

(١) اتجاهات التفسير: (١/٢٢٠ ـ ٢٢٢).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: (١٩٤).

٣ ـ من مصنفات الشيعة في التفسير:

ـ التفسير المبين، محمد جواد مغنية.

ـ تفسير منهج الصادقين، ملا فتح الله الكاشاني.

ـ الصافي في تفسير القرآن، الفيض الكاشاني[١].

ـ تفسير العياشي.

ـ تفسير الفراتي الكوفية.

ـ تفسير القمي.

ثالثاً ـ منهج الخوارج[٢]:

لم تبق من فرق الخوارج الأولى إلا الإباضية، ووجودهم الآن في عُمان وزنجبار، وفي ليبيا في جبل نفُّوسة وزواوة، وتونس (جزيرة جربة)، والجزائر (وادي ميزاب).

وهم ينكرون بشدة تسميتهم بالخوارج، وإذا قارنت أصول منهجهم مع أصول الخوارج فيما يلي تبين لك أنهم من الخوارج بلا ريب.

١ ـ من أصول منهج الإباضية:

أ ـ الإيمان عندهم هو الاعتقاد والإقرار والعمل، ومن أخَّل بالاعتقاد وحده، أو به وبالعمل فهو مشرك منافق، ومن أخلَّ بالإقرار وحده أو بالعمل معه فهو مشرك عند جمهورهم، ومن أخل بالعمل وحده فهم منافق فاسق ضال كافر، ليس بمشرك[٣].

ب ـ والكفر عندهم: كفر نعمة ونفاق، وصاحبه موحد إيمانه ناقص،

---

(١) المصدر نفسه: (٣/١٢٢٠ ـ ١٢٢٤).

(٢) لخصت مادة هذا البحث من كتاب اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر (١/٢٨١ ـ ٣٥٦). مع تصرف وإضافات.

(٣) اتجاهات التفسير: (٣٣٦).

ويطلق على فاعل الكبيرة الذي لم يتب، وهو في عقيدتهم خالد في جهنم، وتجري عليه أحكام الإسلام في الدنيا، من عصمة الدم والمال، وإن كان يستحق البراءة والهجرة والمقاطعة[١].

ـ وكفر ملّة، ويطلق على من أخل بالاعتقاد أو به وبالعمل، ويسمى مشركاً، ولا يستحق عصمة الدم، أو المال[٢].

قلت: وهم في قولهم بخلود فاعل الكبيرة من الموحدين في النار قائلون بأصل الخوارج الذي اجتمعوا عليه، وإنما خالفوهم في إجراء بعض أحكام الإسلام عليه، كعصمة المال والدم، وقد أطلقوا عليه اسم الكفر، فبهذا يلزمهم اسم الخوارج.

ت ـ ينكرون الشفاعة لأهل الكبائر: وهذا كذلك من أصول منهج الخوارج، وقد تابعوهم فيه[٣]، وهذا يلزمهم بالاسم.

ث ـ يقول المغاربة منهم بخلق القرآن، والمشارقة يذهبون إلى أنه كلام الله غير مخلوق، وهو عندهم الكلام النفسي[٤].

قلت وهم في ذلك على خلاف منهج أهل السنة: بين الاعتزال والأشعرية.

ج ـ ينكرون رؤية الله تعالى في الآخرة، وقد تابعوا في ذلك المعتزلة، وجانبوا السنة[٥].

ح ـ يقولون إن صفات الله عين ذاته، والاسم والصفة عندهم بمعنى واحد، وهم في هذا مقلدون للمعتزلة[٦].

---

(١) المصدر ذاته: (٣٤٠ ـ ٣٤١، ٢٨٧ ـ ٢٨٨).
(٢) المصدر ذاته: (٣٤٠ ـ ٣٤١).
(٣) المصدر السابق (٢٨٧).
(٤) مبحث الخوارج من «فرق ومذاهب معاصرة». للمؤلف وهو مخطوط لم يطبع.
(٥) اتجاهات التفسير: (٢٨٤).
(٦) مبحث الخوارج من «فرق ومذاهب معاصرة».

خ ـ يقولون في الاستواء واليد والعين والنزول والغضب وسائر الصفات الخبرية بالتعطيل والتحريف على طريقة الأشاعرة[1].

د ـ يتولون الخارجين على علي يوم النهروان، ويكفرون من أشار على علي بقتالهم لأن علياً ـ بزعمهم ـ لم يرد قتالهم، وإنما أراد التفاهم معهم[2]، ويتولون قاتل علي[3].

قلت: وهذا من أصول منهج الخوارج الذي أجمعوا عليه.

ذ ـ يتولون أبا بكر وعمر، ويرون أن عثمان كان ظالماً جباراً ومعانداً في الفتنة، وأن علياً خلع نفسه من الإمامة بقبول التحكيم، ومعاوية في دينهم خارج على الإمام، وخارج على الدين[4].

قلت: وهذه منهم موالاة للخوارج على عثمان، وطعن في إمامته وخلافته، وفي بيعة الصحابة الذين بايعوه، وطعن في دينه وعدالته، وفي شهادة النبي ﷺ له، وطعن في إمامة علي، وموالاة لأعدائه من الخوارج الذين خرجوا عليه، كعبدالله بن إباض، وعبدالله بن وهب الراسبي، وهذا من أصول منهج الخوارج التي خرجوا بها على الجماعة والإسلام.

وكذلك تابعوا الخوارج الأُوَلْ في تكفير معاوية رضي الله عنه[5].

٢ ـ أصول التفسير عند الإباضية:

أ ـ تفسير القرآن بالقرآن.

ب ـ تفسير القرآن بالسنة.

ت ـ التفسير بالإسرائيليات.

---

(١) اتجاهات التفسير: (٣٣٢).

(٢) مبحث الخوارج من «فرق ومذاهب معاصرة»، واتجاهات معاصرة: (٢٩٦).

(٣) نفس المصدر.

(٤) اتجاهات التفسير (٢٩٦ ـ ٢٩٧).

(٥) وقد سقت لك هذه المقارنة لتعلم أنهم على منهج الخوارج، وإن أنكروا ذلك بأفواههم.

ث ـ الإجماع من مصادر التشيع عند الإباضية[1]، وقد يرجع إليه عند التفسير.

ج ـ تحريف الآيات المخالفة لمنهجهم، وخاصة في قضايا الصفات، والكفر والإيمان، بما يخرجها عن مقاصدها، ويعطل معانيها[2]، على طريقة الأشاعرة.

ح ـ ردُّ حديث الآحاد في العقيدة[3]، وهذا كذلك جريٌ على طريقة الأشاعرة، ومنطق اليونان.

وأما أصل الأصول عند الخوارج، وعند الفرق المخالفة للسنة، فهو اتباع الهوى، ولا أدل على ذلك من حديث ذي الخويصرة، والذي قال لنبي الله وأمينه ورسوله ﷺ: (إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله)، وقال: (اعدل فإنك لم تعدل)، فقال له النبي ﷺ: «**ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل**»، ثم قال عنه: «**يخرج من ضئضيء هذا قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وقراءتكم مع قراءتهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية**»[4]. فهي نص في الخوارج الذين منهم ذو الثدية، وهم الذين قتلهم علي في النهروان بلا شك ولا ريب ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] والإباضية يتولونهم.

وحسبك من منهج فساداً قبوله موالاة قتلة الصحابة، وموافقتهم على تمردهم وضلالاتهم، والحكم بتخليد فاعل الكبيرة في النار، وأمثال هذه الضلالات المهلكة.

وإنّ من الملاحظ أن كتب التفسير عند الخوارج قليلة، ولا يُعرف لهم إلا ثلاثة قديمة، وثلاثة حديثة:

---

(١) اتجاهات التفسير (٣١١ ـ ٣١٥).

(٢) المصدر السابق (٣٥٤٩).

(٣) فرق ومذاهب معاصرة.

(٤) رواه البخاري (٤٣٥١، ٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أما التفاسير القديمة، فهي:

أ ـ تفسير عبدالرحمن بن رستم الفارسي، وهو مفقود وغير معروف.

ب ـ تفسير يوسف بن إبراهيم الورجلاني، وهو كذلك مفقود.

ت ـ تفسير هود بن محكم، وهو متداول بين أباضية المغرب، وهو يقع في أربعة مجلدات. وأما الحديثة فهي:

أ ـ (تفسير داعي العمل ليوم الأمل)، لم يتم، ويحتوي على تفسير الأجزاء الأربعة الأخيرة من القرآن، ويقع في مجلدين، وهو غير متداول.

ب ـ (همیان الزاد ليوم الميعاد): يقع في ثلاثة عشر مجلداً.

ت ـ (تيسير التفسير) ويقع في سبع مجلدات.

والاثنان الأخيران مطبوعان متداولان، وهذه التفاسير كتبها مؤلف واحد، هو محمد بن يوسف اطفيش[1].

رابعاً ـ منهج المعتزلة:

١ ـ كانت بداية الاعتزال بانحراف واصل بن عطاء تلميذ الإمام الحسن البصري عن منهج شيخه، وقوله بالمنزلة بين المنزلتين، وقد جمع المعتزلة القول بالأصول الخمسة، وهي:

أ ـ التوحيد: وحقيقته تعطيل الصفات، وجحودها.

ب ـ العدل: ويريدون به نفي القدر، وإثبات أن الله شاء الإيمان من الخلق، وشاء الكافر الكفر، فكان ما شاء الكافر، لا ما شاء الله.

ت ـ إنفاذ الوعيد: ويريدون به أن الله لا يغفر الكبيرة، إلا بالتوبة.

ث ـ الأمر بالمعروف: وحقيقته إباحة الخروج على الإمام الجائر، وشق عصا الطاعة، وسفك الدم الحرام.

---

(١) اتجاهات التفسير: (٣٠٢/١).

ج ـ المنزلة بين المنزلتين: وتأويلها نفي الإسلام عن فاعل الكبيرة، والحكم بخلوده في النار، ونفي اسم الإيمان عنه.

وقد اجتمعت المعتزلة على مقالات غير ما مرَّ، أهمها:

ـ نفي الصفات، كالعلم، والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام.

ـ أن القرآن كلام الله مخلوق.

ـ أن الله لم يخلق الكفر والمعاصي والشر، والعبد خالق أفعاله.

ـ وأن فاعل الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان والإسلام، بل هو في منزلة بين الإسلام والكفر، وهو خالد في النار.

ـ أن فريقاً لا بعينه من أصحاب الجمل وصفّين فاسق، وكذلك عثمان وقاتليه، وهو فسق يخلد صاحبه في النار، وهذا من أعظم البغي والتطاول على أئمة الهدى والرضوان أصحاب رسول الله رضي الله عنهم.

ـ أن أصول المعرفة، وشكر المنعم، وجب قبل ورود الشرع، ويجب معرفة الحسن والقبيح، وفعل الحسن وترك القبيح، قبل ورود الوحي، وأن ورود الوحي إلطاف الباري[1].

٢ ـ أصول التفسير عند المعتزلة:

أ ـ ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن المعتزلة صنفت تفاسير على أصول مذهبها، وحملوا ألفاظ القرآن عليها، واعتقدوا رأياً حملوا القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة، ولا من التابعين لهم بإحسان[2].

قلت: وأصولهم هي تعطيل الصفات، وإنكار القدر، والقول بأن العباد

---

(١) ملخصاً من مبحث المعتزلة ضمن: «فرق ومذاهب معاصرة».

(٢) مقدمة أصول التفسير (١٩١ ـ ١٩٢) من مجموع الفتاوى.

يخلقون أعمالهم، وتفسيق فاعل الكبيرة وتخليده في النار، ووجوب الخروج على الحاكم المسلم الظالم.

ومن ذلك: (قولهم إن الأجسام محدثة، واستدلالهم على ذلك أنها لا تخلو من الحوادث، ولم تسبق الحوادث، وكل ما لم يخل من الحوادث ولم يسبقها فهو محدث)[1].

ب ـ ومن أصولهم تحريف الآيات، وصرفها عن ظواهرها لغير دليل، تحت اسم التأويل[2].

ت ـ قولهم أن الحجة تقوم على الناس بالعقل، والكتاب، والرسول، وبالعقل يعرف الله، وبالكتاب يعرف العبد، وبالرسول تعرف العبادة، وأن العقل أصل الحجتين، لأنهما عرفا به، ولم يعرف بهما[3].

وهذا يقتضي جعلهم العقل حجة مستقلة، وتقديمه على الوحي، وينبني على هذا:

ث ـ التوفيق بين العقل والنقل[4]:

أي عند التعارض في فهم الناظر بتقديم ما دلَّ عليه العقل على دلالة القرآن والسنة.

ج ـ عدُّ آيات الصفات من المتشابه[5].

وهذا يستلزم ردَّها إلى ما يعدّونه محكماً، وإخراجها عن دلالة ظواهرها.

ح ـ القول بالمجاز في القرآن[6].

---

(١) مقدمة أصول التفسير (٨٠).
(٢) متخصر الصواعق المرسلة (١٣/١).
(٣) رسائل العدل والتوحيد (١٢٤ ـ ١٢٥).
(٤) مختصر الصواعق المرسلة: (١٢٩/١).
(٥) رسائل العدل والتوحيد (١٣٣، ١٧٢، ٣١٩).
(٦) مختصر الصواعق المرسلة (٨٣/٢).

والمعتزلة هم أول من أحدث القول بالمجاز، إذ لم ينقل ذلك بالمعنى الذي قالوه عن أحد من السلف، لا من الصحابة، ولا من التابعين لهم، ولا من الأئمة.

والقول بالمجاز هو أخطر مداخل التحريف والتعطيل، وإفساد عقائد القرآن، وشرائعه، وذريعة نسبة الباطل إلى كلام الله تعالى، وزعزعة قدسيته، ومكانته في علوم الدين، وقلوب المسلمين.

٣ ـ من مصنفات المعتزلة في التفسير:

أ ـ (كشاف الزمخشري)، وهو متداول منتشر.

ب ـ تفسير عبدالرحمن بن كيسان الأصم.

ت ـ تفيسر أبي علي الجُبَّائي.

ث ـ (التفسير الكبير) للقاضي عبدالجبار الهمداني.

ج ـ تفسير علي بن عيسى الرماني[1].

خامساً ـ منهج الأشاعرة:

والمراد بالأشاعرة من تمسك بما كان عليه الأشعري، بعد توبته من الاعتزال، وقبل تمام لزومه السنة، ومنهج السلف، عندما كان في منزلة بين الاعتزال واتباع السنة، قبل أن يستوي، ويستقر على السنة.

١ ـ من أصول منهج الأشاعرة:

أ ـ يقولون في الإيمان أنه التصديق بالقلب، دون نطق اللسان وعمل الجوارح، فالأعمال وقول اللسان ليست من الإيمان عندهم.

ب ـ أول واجب على المكلف عندهم هو النظر والمعرفة بصفات الله، وأحكام الألوهية، والاستدلال للربوبية.

---

(١) مقدمة التفسير من مجموع الفتاوى (١٣/١٩١).

ت ـ وهم يثبتون الصفات السبع التي نفاها المعتزلة: الحياة، والقدرة، والعلم، والإرادة، واللام، والسمع، والبصر، فيوافقون أهل السنة في هذا، ويخالفون في تأويل الصفات الخبرية الأخرى، كالاستواء، والضحك، والعجب، والغضب، والرضى، واليد، والعين، والقدم، والساق.

ث ـ القرآن عندهم هو الكلام النفسي، وهو غير مخلوق، أما ألفاظ القرآن المكتوبة في مصاحف المسلمين وحروفه، فهي مخلوقة عندهم، وهي حكاية عن القرآن، أو عبارة عنه.

ج ـ وهم في القدر على قول جهم، فهم نفوا الفعل عن العبد، ونفوا الاختيار، ويرون أن من اعتقد تأثير الأسباب كالنار والسكين تأثيراً ذاتياً فهو كافر، ومن اعتقد تأثيرها بقوة خلقها الله فيها، فقد اختلف في كفره وتبديعه، وهم يثبتون للعبد اختياراً وقدرة لا أثر لها في الفعل، فراراً من وصمة الجبر.

٢ ـ أصول التلقي والعلم عند الأشاعرة:

أ ـ الدلائل النقلية لا تفيد اليقين عند الأشاعرة، ذلك لأنها ـ عندهم ـ مبنية على مقدمات ظنية، والموقوف على المظنون مظنون، وهذا كلام كبار أئمتهم كالفخر الرازي، والجرجاني.

ب ـ أن العقل مقدَّم عندهم على النقل عند التعارض، لأنه أساس النقل، وهذا شقيق كلام المعتزلة.

ت ـ أن التمسك بظواهر الكتاب والسنة، أصل من أصول الضلال على حد قول كثير من أئمتهم.

ث ـ أدخلوا آيات الصفات في المتشابه، الذي يوهم التشبيه والكفر.

ج ـ أوجبوا تأويل هذه النصوص، فراراً مما فهموه من تشبيه، وإخراجها عن معانيها إلى معان لا تحتملها، ولا تدل عليها، وهو على الحقيقة عين التحريف.

ح ـ أجازوا تفويض معاني آيات الصفات، ونسبوا إلى السلف أنهم كانوا يقرؤونها ولا يعلمون معانيها، وهذا تجهيل للسلف وللنبي ﷺ وهو أسوة السلف، وأصل علومهم.

خ ـ ردوا حديث الآحاد في العقيدة، وزعموا أنه لا يفيد إلا الظن، مثل صنيع المعتزلة.

د ـ قالوا بإثبات المجاز في القرآن، وعلى ذلك بنوا تعطيلهم للصفات، وتحريف آياتها. وأجازوا نفي ما أثبته القرآن، وإثبات ما نفاه.

ذ ـ أوجب متأخروا الأشاعرة على المسلمين تقليد أحد المذاهب الأربعة، ومنعوا أخذ الأحكام من القرآن والسنة، وسدوا على الناس باب التفقه في القرآن، واتباع ما فيه، إلا من طريق أحد المذاهب الأربعة[1].

ر ـ ذهب جمهور متأخري الأشاعرة إلى اتباع الطرق الصوفية، وترويجها، على ما فيها من ضلالات، وإيجاب طاعة الشيخ طاعة عمياء، لا تقبل المخالفة، أو الاعتراض على قوله، وهذا من الحجب الثقيلة التي وضعت أمام عقل المسلم، وأخرته عن الاتصال بالقرآن، اتصال تفقه وتدبر وهداية وحكم واتباع.

٣ ـ من المصنفات في التفسير على منهج الأشاعرة:

أ ـ تفسير فخر الدين الرازي (مفاتيح الغيب).

ب ـ تفسير ابن عطية.

ت ـ تفسير الجلالين.

ث ـ مختصر الصابوني ومصنفاته في التفسير.

ج ـ الأساس في التفسير لسعيد حوى.

---

(١) ملخصاً من «فرق مذاهب معاصرة».

سادساً ـ منهج الصوفية:

التصوف منهج مبتدع على خلاف منهج النبوة، جمع أشتاتاً من بدع العمل والعبادة، والعلم، والاعتقاد، بدأت بالغلو في الزهد، والتعبد بترك المباحات، ثم اتخذ أصحابه زياً واسماً ورسماً تميزوا به، ثم انتهى الغلاة منهم إلى الحلول، ووحدة الوجود، والقول بوحدة الأديان، وإسقاط التكليف، وأحسن أحوالهم التعبد بالرأي المبتدع، ومخالفة هدي النبي ﷺ وأصحابه، والعمل بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، ومنابذة أهل السنة في كل عصر ومصر.

١ ـ من أصول التصوف وقواعده:

أ ـ جواز التوجه بالدعاء والاستغاثة، والذبح، والنذر، للنبي، والولي، واعتقاد أنه يجيب الدعاء، ويكشف الشدائد.

ب ـ نسبة التصرف في الكون للشيوخ والأغواث والأقطاب والأوتاد والأبدال، فالشيخ يعز ويذل، ويحيي ويميت، ويضر وينفع، ويمد مريديه بمدده وهو في قبره.

ت ـ نسبة علم الغيب للمشايخ والأولياء أصحاب الرياضة والمجاهدة، والكشوف.

ث ـ وجوب طاعة الشيخ، وامتثال أمره ونهيه، وحرمة مخالفته بحال.

ج ـ القول بالحقيقة المحمدية، وهي أنها هي الذات بالتعين الأول، ولها الأسماء الحسنى، وهي مجلى الذات الإلهية، ولها الأسماء والصفات.

ح ـ الاعتقاد بالحلول والاتحاد: وهو اعتقاد تجلي الرب في مخلوقاته، وحلوله فيهم.

خ ـ عقيدة وحدة الوجود: وهو اعتقاد أن الرب هو ما ظهر في مخلوقاته، وهو الناظر والمرئي، وهو كل معبود من حجر أو شجر أو حيوان، أو إنسان.

د ـ القول بوحدة الأديان: وهو اعتقاد أن الأديان كلها حق، ولا يصح

التقيد باعتقاد مخصوص، والكفر بما سواه، وهذا قول قائم على وحدة الوجود، فما دام أن كل معبود عند الصوفية، هو الرب سبحانه، فتكون جميع الأديان صادرة عن الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً[1].

٢ ـ طرق التفسير عند الصوفية:

إن طائفة الصوفية هي من الطوائف التي سخرت التفسير لتثبيت معتقداتها ومقالاتها، وتأييدها، وحملت نصوص القرآن على تلك المقولات، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

ومن طرق التفسير التي تميز بها الصوفية:

أ ـ التفسير الباطني (الإشاري):

وهو تفسير آيات القرآن على غير ما تدل ألفاظها، ويفهم من سياقها، أو تدل القواعد والأصول واللغة الصحيحة، بما يوافق معنى في نفس الصوفي، في وصف، أو حال، أو رسم، أو هيئة، أو تذوق.

وينقسم هذا اللون من التفسير إلى قسمين:

قسم يتناول أحوال القلب والنفس، والسلوك، وينزل معاني الآيات على هذه المطالب، وبناءً على ما في نفس المتأول، لا على دلالة الآيات.

وآخر يُنزل معاني الآيات، على الأشخاص والأعيان والطوائف، بناء على دعوى العلم الباطن، وأن لكل آية ظاهراً وباطناً، وباطناً للباطن، ويزعم أصحاب هذا التفسير أنه سر من أسرار الله، يقذفه في قلب من يشاء من عباده، ومن أمثلة ذلك:

تأويل قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، أنه قلب الإنسان، وقوله:

---

(١) هذه الأصول موزعة في طوائف الصوفية، وعوامهم لا يعلمون الكثير عنها، وكثير منهم ذوو نوايا وإخلاص، واجتهاد وعبادة، ولكنها عبادات مختلطة بالبدع والمخالفة للسنة، وهم غير بعيدين عن الغلو في مشايخهم، وطاعتهم طاعة عمياء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ أنها النفس، وقوله: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ﴾ اترك الدنيا والآخرة[1].

ومن ذلك كلام ابن عربي وإلحاده في آيات القرآن في كتابه «فصوص الحكم»، وكلام أمثاله كابن الفارض، والحلاج، وكلام أبي عبدالرحمن السُّلمي في كتابه حقائق التفسير، وقد قال فيه الواحدي أنه إن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر[2].

وهذا تأويل باطني يشبه كلام الباطنية، والإسماعيلية، الذي ينقض عرى الإسلام وقواعده عروة عروة، ولا يجوز عده من التفسير.

٣ ـ من مصنفات الصوفية في التفسير:

أ ـ تفسير ابن عربي: وهو في مجلد كبير.

ب ـ تفسير أبي عبدالرحمن السُّلمي: «حقائق التفسير»، وهو من أقدم تفاسير الصوفية.

ت ـ قرة العينين من البيضاوي والجلاليين، ليوسف النبهاني.

ث ـ «نفحة الرحمن في تفسير القرآن»، أبو الهدى محمد بن حسن الصيادي[3].

وكتابات الصوفية عموماً تعج بالإسرائيليات التي يعتمدون عليها، وعلى الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وكتب التفسير عندهم تشتمل على نصيب وافر من هذين النوعين وأمثالهما.

سابعاً ـ منهج المدرسة العقلية الحديثة:

كانت نشأة المدرسة العقلية أو الإصلاحية الحديثة مع نهاية الخلافة التركية العثمانية، وبداية الاستعمار الصليبي الأوربي لبلدان المسلمين.

---

(١) اتجاهات التفسير: (١/٣٧٢).

(٢) المصدر السابق: (١/٣٧٠).

(٣) المصدر السابق: (١/٣٧٥ ـ ٣٧٦).

وقد انطلقت من منطلق إثبات موافقة الإسلام لنظريات العلم المادي، وعدم معارضته للعقل، والحرية الفكرية، وتحركت في بداياتها من خلال عقلية مؤسسيها، أمثال جمال الدين الأسد آبادي الإيراني، الشهير بالأفغاني، ومحمد عبده المصري، وكل واحد من هذين قد تشبع بالمنهج العقلاني القديم، من خلال دراسة المنطق والفلسفة، والعلوم العقلية، إضافة إلى الانخراط في الحركة الماسونية، والمشاركة في دعوة تقارب الأديان، والاحتكاك برجال السلطة الأوربية، والتعامل معهم.

وكانت حصيلتها قيام الأحزاب العلمانية اللادينية، على يد تلامذة الإصلاح العقلاني، أمثال سعد زغلول، ومصطفى كامل، فظهر حزب الوفد، وحزب الأمة، وقيام الحكم العلماني الغربي في بلاد المسلمين، على أيدي مسلمين من جلدة بني الإسلام، وممن ينطق بألسنتهم.

١ ـ من أصول المنهج العقلاني الإصلاحي الحديث:

أ ـ تعريف الوحي:

ذهب محمد عبده، وتلميذه محمد رشيد رضا، ومحمد فريد وجدي إلى أن الوحي هو: (عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله، بواسطة، أو بغير واسطة)[1].

وعلى هذا فالتفريق متعذر بين تخرصات دجال، ووحي الله إلى أنبيائه، والرد مستصعب على شبهات الطاعنين في النبوة من فلاسفة ومستشرقين، وفرق باطنية، ومتكلمين من أهل التعطيل والتحريف.

ب ـ الإيمان بالقدر:

ذهب معظم رجال المدرسة العقلية الحديثة إلى القول بقول المعتزلة في القدر، فقالوا إن أفعال العباد لا تتبع علم الله، بل علم الله يتبع أفعال العباد، وقدر الله تبع لاختيار العبد، وقالوا بإثبات حرية الاختيار للعبد،

---

(١) اتجاهات التفسير: (٤٨٦/٢).

فذهب إلى هذا جمال الدين الإيراني، ومحمد عبده، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ مصطفى المراغي، وتبعهم على ذلك محمد الغزالي، وخالف فيه محمد فريد وجدي[1].

ت ـ أشراط الساعة:

ذهب محمد عبده، ورشيد رضا، وآخرون من هذه المدرسة إلى التشكيك في أشراط الساعة، والتماس التفسيرات العلمية لها، وذلك للتوفيق بين موقف العقل المادي، وما جاء من نصوص في خروج الشمس من مغربها، وخروج المهدي، وخروج الدجال، كما ذهبوا إلى التشكيك في صحة المرويات في هذا الباب، للوصول إلى الإعراض عما دلت عليه، وأخبرت به.

وذلك بخلاف موقف أئمة السنة من التسليم بصحة هذه الأشراط، والإيمان بوقوعها كما أخبرت النصوص الصحيحة[2].

كما أن هؤلاء يتأولون كثيراً من النصوص المخبرة عن حوادث يوم القيامة، مثل رجفة الأرض، ودك الجبال والأرض، وحمل الملائكة العرش يوم القيامة، ونشر الصحف، وأخذ الكتب باليمين والشمال، على التمثيل والرمز، لا على الحقيقة والواقع[3].

ث ـ الإيمان بالمعجزات:

ذهب رجال المدرسة العقلية الحديثة إلى إنكار كثير من المعجزات الصحيحة الثابتة للنبي ﷺ إما بتأويل نصوصها، وإخراجها عن معانيها، أو الطعن في أسانيدها الصحيحة الثابتة، ولم يسلّموا إلا بمعجزة القرآن الكريم، رعاية لمنزلة العقل الذي قامت النبوة على قواعده، ولأن (أحرار الفرنج) يجدون في هذه المعجزات التي رواها القرآن، مثار شك وريبة، ولم يكن

---

(١) منهج المدرسة العقلية في التفسير (٥٣٣ ـ ٥٤٠).

(٢) منهج المدرسة العقلية في التفسير (٥١٤ ـ ٥٢٤).

(٣) منهج المدرسة العقلية: (٥٢٨ ـ ٥٣٢).

رجال المدرسة العقلية يرون أن المعجزات التي جاءت في الأديان السابقة حجة كافية لوجوب الإيمان، بل هي وسائل إدهاش وإلهاء. كما صرح محمد عبده[1] وغيره.

ج ـ النظام السياسي:

تتظاهر مواقف أتباع المدرسة العقلية ـ على تفاوت بينهم ـ على اعتماد النظام الغربي في الحكم والسياسة بشيء من التعديل، بدءاً من محمد عبده وعلي عبدالرازق، إلى محمد الغزالي، ويوسف القرضاوي، وحسن الترابي.

وقد أنكر عبده وعبدالرازق الحكومة الدينية، والسلطة الدينية في الإسلام، ودعى آخرون إلى اعتماد الدستور، والبرلمان، والانتخابات، كأجهزة شرعية في نظام الدولة الإسلامية.

ح ـ مسايرة النظام الغربي الاجتماعي:

وقد اتسمت المدرسة العقلية الحديثة بالسعي لمحاولة التوفيق بين أحكام الشريعة الإسلامية، والعادات المنتشرة، والأهواء الطاغية، ابتداء من إباحة محمد عبده لبس القبعة الأوربية فيما عرف بالفتوى الكرنفالية، ثم قول الشيخ مصطفى المراغي للجنة القوانين المصرية: (ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان، وأنا لا يعوزني بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضعتم)[2].

ثم استحلال الغزالي للغناء والموسيقى، واستباحة تولية المرأة، وشراء البيوت بالقروض الربوية بدعوى الضرورة، واستحلال المصافحة والاختلاط، وحلق اللحية، وإباحة خلع المرأة غطاء رأسها داخل الجامعة أو المدرسة مع وجود الرجال الأجانب، وإباحته التجنيد في الجيوش الأوربية، مع رد الكثير من الأحاديث النبوية الصحيحة بسوء الفهم[3].

---

(١) منهج المدرسة العقلية: (٥٤٥ ـ ٥٥٥).

(٢) اتجاهات التفسير: (٧٤١/٢).

(٣) وهذه الفتاوى متداولة عنه بين العامة.

٢ ـ قواعد المدرسة العقلية الحديثة في التفسير:

وإنما أردت ما تميز به منهج هذه المدرسة، مما لم يصح في منهج أهل السنة، دون غيره من الأصول التي شاركت هذه المدرسة أهل السنة فيه.

أ ـ المنهج العقلاني في التفسير:

وقد أحيت هذه المدرسة ميراث المعتزلة في الاحتكام إلى العقل، وجعلته الأصل الأول للإسلام، فهو يعلو ولا يُعلى عليه، وقدمته على دلالات النصوص، وفي التوقف في تفسير النص المخالف للعقل، أو تأويله بما يوافق العقل، وجعلت أول واجب على المكلف هو النظر والاستدلال لتحصيل الاعتقاد بالله، وصحح دعاة هذه المدرسة أحاديث موضوعة في فضل العقل، ومنهم من زعم قدرة العقل المجرد على الوصول إلى الكمال في الأحكام، والتصورات، والنظم الاجتماعية، والآداب، والأعمال.

ومن ذلك قول محمد عبده إن كل ما ورد في خرطوم الشيطان، وجثومه على الصدر، أو القلب، فهو من التمثيل والتصوير، في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥، ٦]، وتفسيره الأوتاد في قوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾ [الفجر: ١٠] بالمباني العظيمة، وسخريته من تفسير السيوطي لقول الله: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩]: أن الرعد ملك أو صوته، والبرق سوط يسوق به السحاب، فيقول: (كأن الملك جسم مادي، لأن الصوت المسموع بالآذان من خصائص الأجسام، وكأن السحاب حمار بليد لا يسير إلا إذا زجر بالصراخ الشديد، والضرب المتتابع).

وفسر المسخ في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥] بأنه مسخ الطباع فتكون كأخلاق القردة، وفسر عبدالقادر المغربي قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، أأمنتم الإله العظيم القاهر، ونفى علو الذات، وأقر بإمكان استبعاد أهل القرون القديمة للبث يونس في بطن

الحوت، وأنكره على المعاصرين، لأن العلوم اليوم أثبتت بقاء الغواصات أياماً تحت الماء[1].

وبالعقل المضطرب شكك الغزالي في حديث الذبابة في العديد من مؤلفاته، وردّ حديث إغارة النبي ﷺ على بني المصطلق وهم غارُّون، وطعن في حديث القدر وسبق الكتاب، ونصر تسليط العقليات المريضة على نصوص الشرع في كتبه الحديثة والقديمة.

ب ـ تقديم ظواهر القرآن على تفسير السنة:

فقررت هذه المدرسة أن الحكم الشرعي يُلتمس في القرآن أولاً، فإن وجد فيه فبه يؤخذ، ولا ينظر إلى غيره، ويقدم أحدهم ما يفهم من القرآن على ما صح من سنة، أو تفسير صحابة، أو غيره، كما قرره محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، ومحمود شلتوت، وغيرهم.

وعلى ذلك نفي محمد عبده سحر النبي ﷺ، ونفى محمد رشيد رضا تحريم ما سوى الأربعة المذكورة في الآية: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، إلا تحريماً مؤقتاً، أو كراهة، وتبعه المراغي وغيره[2].

وذهب عبدالعزيز جاويش إلى تقييد جواز التعدد بالعدل، وجعل الخوف من الوقوع في الظلم سبباً لتحريم التعدد، ثم اعتبر البشر عاجزين عن العدل ولو حرصوا، ونصر قول المعتزلة في تحريم التعدد[3]، مسايرة لنظرة المجتمع الغربي للتعدد.

ت ـ انتقاص التفسير بالمأثور:

فأتباع المدرسة العقلية يجعلون التفسير بالآثار في مرتبة ثالثة، بعد

---

(١) منهج المدرسة العقلية: (٢٨٤ ـ ٢٩٨).

(٢) منهج المدرسة العقلية: (٢٤٦ ـ ٢٥٢).

(٣) المصدر السابق: (٦٧١ ـ ٦٧٢).

العقل، وظواهر القرآن الكريم، ولا يحجمون عن الطعن في حديث من أحاديث الصحيحين، بالطعن في رواته، إذا لم يقبل التأويل، والتشكيك في مصادر الرواية.

وزعم العديد منهم أن التفسير بالمأثور شاغل عن مقاصد القرآن، ومعانيه، وردوا الأحاديث بزعم مخالفة سنن الله في الخلق، أو أصلٍ من الأصول، أو نصٍ قطعي، أو كأنها تروى بالمعنى.

وبذلك فسر محمد عبده «الكوثر» بأنه النبوة أو العلم، وتوقف في القول أنه نهر في الجنة، ورد عبده وتلميذه رشيد رضا الأحاديث الصحيحة أن بني إسرائيل دخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حطة حبة في شعرة، وزعما أن هذا يحتمل أن أبا هريرة سمعه من كعب الأحبار، لأنه لم يصرح بسماعه من النبي ﷺ، وكذلك صنع رشيد رضا في حديث طلوع الشمس من مغربها، إذ أورد احتمال سماع أبي هريرة من كعب الأحبار، وتوقف في القول بالحديث، ورد حديث خلق التربة في يوم السبت، وقد رواه مسلم[1].

وإن كان هؤلاء يسلمون عموماً بصحة تفسير القرآن بالسنة، ولهم مواضع أصابوا فيها التفسير بالمأثور الصحيح المحكم.

ث ـ إنكار رواية الإسرائيليات في كتب التفسير:

أنكر محمد عبده جواز رواية الإسرائيليات في التفسير، لأنه لا يجوز إلحاق شيء بالوحي إلا ما دل عليه لفظه وأسلوبه، وما ثبت بالوحي عن النبي ﷺ قطعياً.

وحذر عبدالعزيز جاويش من قراءة ما جاء في كتب التفسير من إسرائيليات، وغريب الروايات لأنها مضلة للعقول، وقال محمود شلتوت: إن الإسرائيليات قد جنت على الفكر الإسلامي، وقال محمد رشيد رضا: أن ابن تيمية جزم بالتوقف عن تصديق جميع ما عرف أنه من رواة الإسرائيليات، في غير ما يقوم الدليل على بطلانه في نفسه، وقال عن كعب

---

(١) منهج المدرسة العقلية: (٣٤٤ ـ ٣٥١).

الأحبار أنه كان يغش المسلمين بمثل هذه الخرافات، وخدع به الناس لإظهار التقوى.

وقال المراغي في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٣٢]، أن كل ما ذكره رواة التفسير بالمأثور ليس لها سند يوثق به، وما هي إلا إسرائيليات تلقفها المفسرون من أهل الكتاب الذين كانوا يكيدون للإسلام والعرب، كروايات وهب بن منبه، وكعب الأحبار[1].

٣ ـ من مصنفات العقلانيين الجدد في التفسير:

أ ـ تفسير جزء عم، وسورة الفاتحة، تفسير سورة العصر، لمحمد عبده[2].

ب ـ تفسير المنار، حرره الشيخ محمد رشيد رضا، وصل إلى سورة يوسف، وأكثره من أقوال محمد عبده في التفسير.

ت ـ تفسير جزء تبارك، وسورة الحجرات، والحديد، ولقمان، والعصر، وبعض الفرقان، محمد مصطفى المراغي.

ث ـ المصحف المفسر، ومقدمته صفوة الفرقان، محمد فريد وجدي.

ج ـ تفسير الأجزاء العشر الأولى من القرآن، محمود شلتوت.

ح ـ تفسير أسرار القرآن، عبدالعزيز جاويش.

خ ـ تفسير جزء تبارك، عبدالقادر المغربي.

د ـ تفسير المراغي، وهو كامل، أحمد مصطفى المراغي.

ذ ـ كتابات الغزالي في التفسير.

ثانياً ـ التفسير بالرأي:

والرأي مصدر، من رأى يرى، ويراد به المرئي، كما قد يراد به النظر الموصل إلى المرئي رؤية معنوية.

---

(١) منهج المدرسة العقلية: (٣١٦ ـ ٣٢٤).

(٢) اتجاهات التفسير: (٧٩٩/٢).

والرأي قد يكون صحيحاً، وقد تقدم بيان منهج التفسير الاجتهادي، وهو الرأي الصحيح، عند الكلام على منهج أهل السنة في التفسير.

وقد يكون فاسداً، وهو المراد هٰهنا، وهو الكلام في تفسير القرآن الكريم، والكلام في أمور الدين، على غير دليل ولا أصل ولا قاعدة صحيحة، وإنما هو بمجرد الظن والحدس.

ومن أنواع الرأي الباطل:

١ ـ التفسير مع الجهل باللغة العربية.

٢ ـ التفسير مع الجهل بالسنة، وأقوال الصحابة.

٣ ـ التفسير مع الجهل بقواعد التفسير السنية.

٤ ـ التفسير مع الجهل بأسباب النزول.

٥ ـ حمل ألفاظ القرآن على وفق الأقوال، والمعتقدات، والبدع المحدثة.

٦ ـ الخوض في تفسير آيات الإيمان، والصفات، بمجرد العقل.

٧ ـ نصب الخلاف بين العقل ونصوص القرآن التي قد تشكل على فهم المفسر.

٨ ـ تفسير القرآن بالظن والتخمين.

٩ ـ التفسير المتضمن خلاف أقوال أهل السنة في الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية، وأصول أهل السنة العلمية والعملية.

ويدخل في ذلك مصنفات الفرق، من رافضة، وخوارج، ومعتزلة، وصوفية، وأشاعرة، وعقلانية، وغيرها.

تاسعاً ـ تفسير آيات الأحكام:

للمفسرين اهتمامات شتى، بحسب المنهج والصناعة والأغراض، ومن

ذلك التفسير الفقهي، والتوجه لبيان الأحكام التي تضمنتها الآيات، وقد كتبت عدة تفاسر لبيان أحكام القرآن، ومن ذلك:

١ ـ أحكام القرآن: للإمام الشافعي، وقد جمعه الإمام البيهقي رحمهما الله، وهو في مجلد.

٢ ـ أحكام القرآن: للإمام ابن العربي المالكي، وهو تفسير للقرآن إلا أنه اهتم بآيات الأحكام، وبيان ما دلت عليه.

٣ ـ أحكام القرآن: للإمام القرطبي، وهو تفسير للقرآن، لكنه مثل سميه لابن العربي، اهتم بآيات الأحكام، وتفصيلها.

٤ ـ نيل المرام في تفسير آيات الأحكام: لمحمد صديق حسن خان.

٥ ـ تفسير آيات الأحكام: المنسوب لمحمد علي السايس.

٦ ـ تفسير آيات الأحكام: مناع خليل القطان.

خاتمة: أكتفي بهذا القدر من الكلام في أبواب علوم القرآن، وأسأل الله تعالى أن ينفع به، ويجعله سبباً لمزيد من العلم والاتباع، ونصرة الدعوة إلى الإسلام والقرآن، وأن يصلح لي النية والعمل، ويغفر لي الزلة، وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك.

دليل المحتويات

المحتوى	الصفحة
المقدمة	٥
التعريفات	٧
علوم القرآن	٧
السورة	٨
الآية	٨
الوحي	٨
ثمرات علوم القرآن	٨
● **المبحث الأول: كيفيات الوحي:**	١١
رؤيا المنام	١١
أن يأتيه مثل صلصلة الجرس	١١
أن يتمثل له الملك رجلاً	١٣
أن يكلمه الله يقظة	١٣
أن يكلمه الله مناماً	١٣
النفث في الروع	١٣
● **المبحث الثاني: جمع القرآن**	١٤
الجمع على عهد رسول الله ﷺ	١٤
الجمع في خلافة أبي بكر رضي الله عنه	١٦
الجمع في خلافة عثمان رضي الله عنه	١٨
● **المبحث الثالث: أسباب النزول**	٢١

المحتوى	الصفحة

سبب النزول ٢١
ما يراد به التفسير ٢١
طرق معرفة أسباب النزول ٢٢
ثمرة معرفة أسباب النزول ٢٤
طرق التوفيق بين الأسباب المختلفة ٢٥
من المصنفات في أسباب النزول ٢٩
● **المبحث الرابع: كيفية نزول القرآن** ٣١
مراحل التنزيل ٣١
معنى إنزال القرآن ٣٢
تنجيم القرآن ٣٣
● **المبحث الخامس: المكي والمدني** ٣٥
اصطلاح المكي والمدني ٣٥
فوائد معرفة المكي والمدني ٣٦
طرق معرفة المكي والمدني ٣٦
● **المبحث السادس: الأحرف السبعة** ٣٨
نزول القرآن على سبعة أحرف ٣٨
المراد بالأحرف السبعة ٣٩
الأحرف السبعة ليست هي القراءات ٤٠
فوائد اختلاف الأحرف ٤١
● **المبحث السابع: القراءات السبع** ٤٣
أنواع القراءات ٤٣
المتواترة ٤٣
المشهورة ٤٣
الآحاد ٤٤
أركان القراءة الصحيحة ٤٤
القراء العشرة ٤٥
● **المبحث الثامن: إعجاز القرآن** ٤٩

المحتوى	الصفحة

معنى الإعجاز ٤٩
ثبوت الإعجاز ٤٩
ثمرة الإعجاز ٥١
وجه إعجاز القرآن ٥١
● **المبحث التاسع: المحكم والمتشابه** ٥٥
المحكم ٥٥
المحكم في القرآن ٥٥
الإحكام العام ٥٥
الإحكام الخاص ٥٦
المتشابه ٥٧
تشابه الإتقان ٥٧
تشابه الدلالة ٥٨
أنواع المتشابه في القرآن ٥٨
المتشابه العام ٥٨
المتشابه الخاص ٥٨
من صفات المتشابه الخاص ٥٩
ما يدخل في المتشابه الخاص ٥٩
المتشابه المطلق ٥٩
● **المبحث العاشر: الناسخ والمنسوخ** ٦١
معنى النسخ ٦١
معنى النسخ في القرآن ٦٢
كيف يعرف النسخ ٦٣
أنواع النسخ باعتبار الناسخ؟ ٦٣
نسخ القرآن بالقرآن ٦٣
نسخ القرآن بالسنة ٦٤
نسخ السنة بالقرآن ٦٥
أقسام النسخ باعتبار الحكم ٦٦

المحتوى	الصفحة

نسخ الفرض بفرض ولا يجوز العمل بالأول ٦٦
نسخ فرض بفرض مع جواز العمل بالأول ٦٦
ندب نسخ فرضاً ٦٧
ما يظن أنه نسخ وليس بنسخ ٦٧
قسم ليس بمخصص ولا منسوخ ٦٧
مخصوص نسب إلى النسخ ٦٧
رفع لشرع من قبلنا أو لعمل الجاهلية ٦٨
المنسأ أو المؤجل ٦٨
ما يقع عليه النسخ، وما لا يقع ٦٩
الناسخ والمنسوخ في كتاب الله ٦٩
● **المبحث الحادي عشر: قصص القرآن:** ٧٣
التعريف ٧٣
موضوعات قصص القرآن ٧٣
مكانة قصص القرآن ٧٤
أغراض القصص في القرآن ٧٤
● **المبحث الثاني عشر: أمثال القرآن** ٧٦
معنى أمثال ٧٦
أهمية الأمثال القرآنية ٧٧
أقسام الأمثال في القرآن ٧٨
أغراض الأمثال في القرآن ٧٨
آيات جرت مجرى المثل ٧٩
● **المبحث الثالث عشر: أقسام القرآن** ٨٠
التعريف ٨٠
فعل القسم ٨٠
حروف القسم ٨٠
المقسم به ٨١
المقسم عليه ٨١

المحتوى	الصفحة

أنواع القسم ٨٢
مقاصد القسم ٨٢
● **المبحث الرابع عشر: جدل القرآن** ٨٣
معنى الجدل ٨٣
أغراض الجدل في القرآن ٨٤
من قواعد الجدل في القرآن ٨٥
من أساليب الجدل القرآنية ٨٨
● **المبحث الخامس عشر: طرق التفسير وقواعده** ٩٢
تفسير القرآن بالقرآن ٩٢
أنواع تفسير القرآن بالقرآن ٩٣
بيان المشترك ٩٣
تعيين المبهم ٩٤
بيان المجمل ٩٤
تفسير القرآن بالسنة ٩٥
من أنواع تفسير القرآن بالسنة باعتبار الطرف ٩٦
النص على تفسير القرآن بالقرآن ٩٦
النص على تفسير القرآن بالسنة ٩٧
دلالة السنة على معنى الآية ٩٧
إيراد النبي للآية في حال موافق لدلالتها ٩٧
تأول النبي ﷺ بفعله ٩٧
من أنواع تفسير السنة للقرآن باعتبار ثمرته ٩٨
تخصيص عامه ٩٨
تقييد مطلقه ٩٩
تفصيل المجمل ٩٩
بيان المبهم ١٠٠
النسخ ١٠٠
بيان النسخ ١٠١

المحتوى	الصفحة

تفصيل قصص القرآن ١٠١
تفسير القرآن بآثار الصحابة ١٠٢
حجية تفسير الصحابة في التفسير ١٠٢
طرق التفسير ومصادره عند الصحابة ١٠٣
تفسير القرآن بالقرآن ١٠٣
تفسير القرآن بالسنة ١٠٣
تفسير في حكم المرفوع دون تصريح بالرفع ١٠٤
التفسير باللغة ١٠٤
التفسير بما ورد عن أهل الكتاب ١٠٤
التفسير بالاجتهاد ١٠٥
طرق الصحابة في التفسير باعتبار ثمرته ١٠٦
تخصيص العموم ١٠٦
بيان المبهم ١٠٦
بيان النسخ ١٠٧
بيان أسباب النزول ١٠٧
تفسير القرآن بأقوال التابعين ١٠٧
أئمة التابعين في التفسير ١٠٧
من أسباب الأخذ بأقوال التابعين في التفسير ١٠٧
مصادر التابعين في تفسير القرآن ١٠٨
● **المبحث السادس عشر: مناهج التفسير** ١١٠
ماذا أعني بالمنهج؟ ١١٠
المنهج السلفي أو منهج أهل السنة ١١٠
أصول وقواعد المنهج السلفي ١١١
قواعد أهل السنة في التفسير ١١٢
التقيد بالسنة في تفسير القرآن ١١٢
التقيد بفهم السلف للنصوص ١١٣
تفصيل كيفية التقيد بفهم السلف ١١٤

المحتوى	الصفحة

أئمة التفسير عن أهل السنة ١١٤
منهج الشيعة ١١٦
أصول منهج الشيعة ١١٧
طرق التفسير وقواعده عند الشيعة ١١٨
تفسير القرآن بالعقل ١١٩
من مصنفات الشيعة في التفسير ١٢٠
منهج الخوارج ١٢٠
من أصول منهج الإباضية ١٢٠
أصول التفسير عند الإباضية ١٢٢
من كتب التفسير عند الإباضية ١٢٣
منهج المعتزلة ١٢٤
أصول منهج الاعتزال ١٢٤
أصول التفسير عند المعتزلة ١٢٥
من مصنفات المعتزلة في التفسير ١٢٧
منهج الأشاعرة ١٢٧
من أصول منهج الأشاعرة ١٢٧
أصول التلقي والعلم عند الأشاعرة ١٢٨
من مصنفات الأشاعرة في التفسير ١٢٩
منهج الصوفية ١٣٠
أصول منهج التصوف ١٣٠
طرق التفسير عند الصوفية ١٣١
مصنفات الصوفية في التفسير ١٣٢
منهج المدرسة العقلية الحديثة ١٣٢
أصول المنهج العقلاني الحديث ١٣٣
تعريف الوحي ١٣٣
الإيمان بالقدر ١٣٣
أشراط الساعة ١٣٤

المحتوى	الصفحة

الإيمان بالمعجزات ١٣٤
النظام السياسي ١٣٥
قواعد المدرسة العقلية في التفسير ١٣٦
المنهج العقلاني في التفسير ١٣٦
تقديم ظواهر القرآن على تفسير السنة ١٣٧
انتقاص التفسير بالمأثور ١٣٧
إنكار رواية الإسرائيليات في كتب التفسير ١٣٨
مصنفات العقلانيين الجدد في التفسير ١٣٩
التفسير بالرأي ١٣٩
أنواع الرأي الباطل ١٤٠
تفسير آيات الأحكام ١٤٠
● **دليل المحتويات** ١٤٣